



الظلال فى الجانب الآخر

بقلم

محمود دياب

الكتاب الماسي

الظلال في الجانب الآخر

بقلم
محمود دياب

القسم الأول

حكاية جميل



بالامس قلت لأحد أساتذة الكلية ردا على سخريته من لوحة كنت قد انتهيت منها ، « ان من السهل الحكم بالفشل على اى عمل فنى ، اما الصعب فهو استخلاص عنصر الجمال فيه ... لأن ذلك يحتاج لموهبة لا تتوافر الا لقليل من الناس . »

وقد تحققت ما قصدت بما قلت ، اذ ترك الاستاذ « الاتيليه » مهتاجا يتوعدنى ، فضحكت بكل كيانى . وأول أمس بصقت فى وجه زميل نعتنى بالضياع والسطحية ، وفى صباح اليوم سفهت طالبة زميلة لاح لى انها تسخر من لحيتى .

فمن العسير على ان اعيش فى مجتمع لا اقول رايى فية ، وطالما ان لى ارادة فمن واجبى أن أثبت حرية هذه الارادة . والشىء الذى لا أفهمه ، ولا أستسيغه هو ذلك الرياء الذى يطبع كل تصرفاتنا حتى اننا نبدو جميعا وكأننا مهرجون فى سيرك كبير ، وقد آن لأحد هؤلاء المهرجين ان يتخذ موقفا جديدا ، فلا يختلف ما يظهره عما يخفيه ، ولا يتردد فى اعلان الحقيقة أيا كان طعمها . فاذا كنت ارى استاذى رجلا غبيا يفتقر الى الموهبة فما الذى يمنعنى من ان اواجهه بهذه الحقيقة ؟ الا يمكن ان يكون فى ذلك ما يجعله يفكر لحظة فى اصلاح حاله ؟

ان لى أبا يعد نفسه من أكثر الناس تدينا ، وكذلك يراه من حوله من اهل بلدتنا الريفية الساذجة . وهو يستغل هذا المظهر فى اذلال الناس ، فهم يقبلون يده دون أن يهتم بمنعهم ، بل انه ليجد لذة مقيتة فى انحنائهم على يده .. وقد كان يفرض علينا منذ صغرنا الصلاة والصوم فرضا ، وينزل عقابه بنا اذا نحن قصرنا ، فكنت أؤدى مظاهر الصلاة على اكمل وجه وأنا أتألم ، وأتكلف الصوم أمام الناس وأفطر فى الخفاء ، وأحس خلال ذلك بشىء ما ينشق فى داخلى .

كنت صغيرا لا أحسن التفكير فى ذلك الوقت ، ولكنى كنت أحسن الاحساس بما يدور حولى ، وكان بيتنا يسوده نظام مفروض ، وسكون خبيث تنشره بقسوة طبيعة أبى الرهيبة ،فكان الجو كله مهيبا لان أفرغ الى أحاسيسى ... فأحسست بأن شيئا ماينشق فى داخلى ..

كنت أود أن أصرخ فى وجه أبى بأنه رجل مقيت وانى أكرهه فى الوقت الذى كنت فيه أقبل يده وكنت فى غالب الأحيان أؤدى الصلاة وأنا أعلم

ان جسدى لا يخلو من الدنس » ولكن أبى لم يكن يعلم بطبيعة الحال ، فكان ذلك يشيع فى نفسى سرورا خفيا . وكنت أتساءل بينى وبين نفسى، الا يمكن أن يكون أبى على الحال نفسه . فكنت أرى انه لا يمكن لرجل يمتلك ثلاث زوجات أن يظل متطهرا كل الوقت ، وذلك قياسا على أنا نفسى ولم أكن أمتلك شيئا منهن .

* * *

لو أردت ان احصر لك ما كان يعد حراما فى بيتنا فى ذلك الوقت لما امكننى ، فأنا لا أكاد اذكر الآن ما كان حلالا فيه ، فلا بد ان كل شيء كان حراما ... فـــاذا كان القـــاء كسرة خبز على الارض حراما فان فى استطاعتك ان تتصور الى اى مدى من التحريم يصل التفكير الطبيعى فى النساء .

وبرغم هذا كنت افكر فى النساء طوال النهار ، وجانبا كبيرا من الليل وكان الباب المغلق على ابينا وزوجته يلهب هذا التفكير ، فكنت أخشى ـ فى بادىء الأمر ـ ان يطلع على ما يدور فى رأسى من أفكار ، حتى اذا ما اقتنعت بأن اطلاعه عليها هو ضرب من المستحيل ، صارت هذه الأفكار وما يتبعها من اسرار لعبتى المفضلة ، ومتنفسى الوحيد .

هل تعرف لماذا التحقت بكلية الفنون الجميلة ... ؟ .. حقيقة اننى كنت أجيد الرسم وأنا طالب فى المدرسة الثانوية ، بل كنت أحسن الطلاب فى هذا المجال ، ولكن الرسم لم يكن هو هدفى فى الواقع ، أو على الأقل لم يكن هدفى الوحيد . فقد كنت أسمع من التلاميذ الكبار بالمدرسة ان طلاب هذه الكلية يرسمون نساء يقفن أمامهم عاريات ، فكنت متلهفا على أن أرى ذلك ..

لو كنت قد اطلعت أبى على هذه الحقيقة آنذاك لما رضى بالتحاقى بكلية الفنون ، ولاستعاذ واستغفر ، ثم لأقام الدنيا وأقعدها ورمانى بالكفر ولعله بعد أن يكف عن الصراخ ويثوب الى هدوئه بمضى ساعة أو ساعتين يغالب شوقه الى أن يكون ـ هو نفسه ـ طالبا بكلية الفنون .

* * *

لقد ترددت خلال خمس سنوات فى ان أواجه ابى برأيى فيه وفى كل شيء ، وكنت أشفق دائما عليه وعلى نفسى ، ولكنى فى النهاية وضعت حدا لهذا التردد . كان ذلك فى نهاية الاجازة السنوية الماضية ، وكانت الأسرة مجتمعة حول المائدة تتناول العشاء ، فاذ به يسألنى فجأة وبلا مقدمات وكأنما تذكر شيئا كان غائبا عن باله .

– قل لى . اننى لم أرك فى الجامع أمس .. وأمس كان الجمعة .. الا تصلى الجمعة ؟

فقلت وأنا اعبث بلحيتى دون أن التفت اليه حتى لاتلتقى عيناى بعينيه،

– ولا السبت .

وكأنني فجرت لغما فى البيت فى تلك اللحظة ، فقد توقف الجميع عن الأكل وخيم صمت مشحون بالدهشة والقلق والخوف ، وأحسست ان انفاس أبى قد تعلقت ، وأن عينيه جحظتا دهشة واستنكارا ، فتابعت تناول الطعام فى هدوء وقد سيطرت على رغبة غامضة فى أن أدمره فرفعت وجهى اليه فى تحد .

قال بصوت يكره الغضب ،
– ماذا تقول ...؟ أتقول انك لا تصلى .

– نعم ... لا أصلى

– منذ متى ... ؟

– منذ خمس سنوات .

– منذ التحقت بالكلية ... هه .. ؟

– بالضبط ..

فاختلج وجهه الاحمر المنتفخ وضاقت عيناه وقال وهو يهز رأسه فى تأمل كئيب :

– كيف لم أتنبه الى هذا من قبل؟ . هل يعلمونكم فى الكلية أن الصلاة حرام .. ؟

– انهم لا يعلموننا شيئا فى الكلية .

لم يكن أبي يتوقع أن أواجهه بمثل هذه الصراحة، ولم يكن يتصور أن أعلن اليه تلك الحقائق فى البساطة التى أعلنتها بها ، لذلك فقد ألجمته الصدمة وأربكته ولم يعد يدرى كيف يتصرف ، فتراجع بكرسيه عن المائدة ، وازاح رأسه الى الخلف وراح يسلخنى بنظرات كانت فيما مضى تسبب لى الانهيار ، ثم قال فى مرارة .

– فلماذا أبدد فلوسى اذن . ؟

فسألته فى تغاب .

– اية فلوس .. ؟

فمال بجسده كله على المائدة وصاح وهو يضرب المائدة بيده السمينة فينفض الصحون .

ـ الفلوس التى أرسلها اليك .. يا فالح ..

ثم عاد الى وضعه الاول ، وسكت برهة ثم قال :

ـ يا للخسارة .. أبدد فلوسى على ولد يفخر بأنه لا يصلى ولا يتعلم شيئا .

ـ انا لم أقل انى لا اتعلم شيئا .. بل قلت ان الكلية لاتعلمنى شيئا ، ولكننى أعلم نفسى .

ـ ياسلام ، وماذا علمت نفسك ياناصح .. ؟

وكانت « نوال » ـ أختى الصغرى ـ تجلس بجوارى ، فمدت يدها من تحت المائدة وراحت تضغط ركبتى فى الحاح تدعونى للهدوء ، فلم أعرها اهتماما ، وأجبته فى برود :

ـ امور كثيرة ... أولها الا أعمل الا ما أرغب فى عمله .

ـ كذا .. وانت لا ترغب فى الصلاة ..

ـ لم يعد يشغلنى أمرها ...

وثار بيتنا الكبير فى تلك الليلة على غير عادة ، وظلّ الصراخ يعلو ويعلو حتى تجمع نفر من الجيران ، واختبأت نوال ، وتدخل اخى والجيران المتجمعون لتهدئة أبى وفض النزاع ، كما تدخلت زوجته الصغيرة التى تعيش معنا ... أما أمى فلم تهتم بالامر ، فلقد كفت عن اقحام نفسها فى مشكلات البيت الكبير منذ خمس عشرة سنة ... منذ يوم وفاتها .

وعندما تركت البلدة وعدت الى القاهرة كنت اتوقع ان تنقطع عنى نقود أبى غير أنها لم تلبث أن وصلتنى بانتظام . وكان الفضل فى ذلك لزوجته الصغيرة المدللة ، وهذا هو ما ذكرته « نوال » فى خطاب أرسلته الى .. وأيا كانت الوسيلة التى اتبعتها زوجة أبى فى اقناعه فلا شك أن فى جمالها ما يكفيها وسيلة ، وكذلك لا شك انها تحمل لى تقديرا خاصا ، وكأنها الوحيدة التى تفهمنى .

الحق اننى أحسست بعد تلك الليلة المثيرة براحة هائلة .. شعرت بأنى حطمت ستارا زائفا كان يحجب حقيقة أفكارى وما أعتقده عن أبى وعمن حوله من الناس . قلت له يوما انه اذا كانت هناك جنة

يعمل حسابها فليدخلها وحده فاني لا أهتم بها ، كما اني لا اريد ان أكون معه فى مكان واحد ان وجدت جنة .

لا ادرى كيف كانت تتصرف أمى لو عاشت حتى تشهد احداث تلك الليلة ؟ أعتقد انها كانت ستقف مشدوهة تتأملنا ثم تنفجر بالبكاء ، فاننى لا أكاد أذكرها الا باكية .

كانت أمى صغيرة عندما ماتت ، فقد تزوجها أبى وهى فى الخامسة عشرة من عمرها . . . وكانت جميلة وطيبة مثل زوجة ابى ، وكانت تبكى كثيرا . وقد حاولت مرات متعددة قبل أن التحق بكلية الفنون أن أرسم لها صورة من ذاكرتى — فهى لم تقف أمام مصور فى حياتها — ولكنى كنت افشل فى كل مرة ، لا لأنى لم أكن أجيد الرسم ، وانما لأنى كنت أحس ان صورتها التى انطبعت فى ذهنى لا يمكن رسمها .

كنت أتخيلها ملاكا أو شيئا قريبا من الملائكة ، بوجهها الناعم القسمات ، وعينيها الهادئتين الحزينتين ، وابتسامتها الشاحبة المفعمة بالأسى .

وباختصار ، كنت أتخيلها فى نقاء وحزن العذراء كما تخيلها ورسمها فنانو عصر النهضة .

ومنذ شهور ، فكرت فى ساعة فراغ ان أرسم لها صورة من ذاكرتى ، فاذا بالصورة التى تخطر الى ذهنى غامضة معقدة اشد التعقيد ، ليس فيها من الصورة الاولى غير الخطوط الخارجية ، بل ان هذه الخطوط نفسها كانت مهزوزة لا استقرار فيها ، أما سمات الملائكة التى تخيلها رسامو عصر النهضة فى صورة العذراء فاننى لم أر فيها شيئا منها . أصبحت امرأة عادية ككل النساء . . . امرأة كزوجة أبى ، وكتلك الزميلة المتزوجة التى زارتنى فى العوامة منذ أيام .

لماذا نحاول دائما أن ننفى فيمن يمتن الينا بصلة الامومة أو الاخوة كل شك ، ونظن فيهن الطهر والنقاء ، فى حين أنهن لسن الا نساء كغيرهن ، وغيرهن — ومن بينهن زميلتى المتزوجة — أمهات لناس وأخوات لآخرين . . . حقيقة انه ما كان يصح أن افكر فى أمى على هذا النحو ، ولكنى عاهدت نفسى على أن أواجهها بالحقيقة كاملة ، وأن اطهرها من كل زيف . . . وما يدرينى أن أمى لم تكن تخفى وراء مظهرها النقى شيئا آخر مختلفا .

* * *

عندما انتقلت الى القاهرة منذ ست سنوات لم يكن فى رأسى شىء من تلك الأفكار فلم أكن سوى طالب ريفى بسيط ، توحى ملامحه

بالسذاجة ، يحمل قلبا ملؤه ألم . غير أن هذا الالم كان قد بدأ يتزايل أمام فرحة شاملة بحياة جديدة لا يكدرها وجه أبى العابس .

كان كل ما أريده هو شيء من الحرية ، هواء جديد ، شمس مختلفة ، نساء ، وقبل كل شيء كنت أريد أن أكف عن الصلاة ... هذا هو كل ما كان يشغل رأسى حينذاك .

وكنت قد عثرت على حجرة تعلو سطح احد المنازل فى السيدة زينب ، فعشت فيها وحدى عامين دراسيين جربت فيهما كل ما أمكننى تجربته . بدأت بغسالة عجوز اعتادت أن تزورنى فى أيام الجمعة لتغسل ثيابى ، ثم انتقلت الى ابنتها التى كانت أكثر رقة وأوفر نضارة. وعرفت خلال ذلك ألوانا من نساء مبتذلات كن يثرن اشمئزازى أكثر مما كن يشبعن رغبتى .

وكان يسكن فى الطابق الاخير من البيت موظف فى سن أبى ، متزوج من فتاة صغيرة وجميلة مثل زوجة أبى ، وان كانت تختلف عنها فى أنها أكثر نضجا وعلى قدر من الثقافة ، فلم تكن فى غبائها وسذاجتها .

وكان « لاحسان » ، وهذا هو اسمها « عشة فراخ » صغيرة على السطح كانت هى طريقى اليها ، فنشأت بيننا علاقة تافهة اعتبرتها حبا، ولم اعتبرها شيئا . وسواء كانت حبا أو لم تكن فقد انتهت بفضيحة .

***

كانت احسان ــ قبل أن تنشأ علاقتنا ــ تضيع أيامها فى العناية بطيورها وبقراءة القصص ، فلم يكن لها أطفال يشغلونها ، ومن ثم فقد كان زوجها لا يفتأ يغذيها بالكتب حتى يلهيها عن التفكير فيما قد لا يحبه. وقد تكلمنا كثيرا ، أنا وهى ، فى حجرتى عن تلك الكتب ، واعارتنى بعضها، وكنت قد حررت نفسى بعض التحرر من مواعيد الكلية حتى أفرغ لها فى الاوقات التى يتغيب فيها زوجها .

وفى صباح أحد تلك الايام جاءتنى بأحد كتبها فمدته الى وهى تقول ضاحكة :

ــ لو قرأ زوجى هذا الكتاب لما أبقاه فى البيت ... ولكنه والحمد لله لا يقرأ كتبا ..

وتناولت الكتاب ورحت أفر أوراقه ، فاستطردت :

ــ انه لكاتبة فرنسية يقال انها وجودية .

فقرأت اسم الكاتبة وقلت :

ـ انها فعلا وجودية .

فقالت وهى تجرى أصابعها الرقيقة على شعرى :

ـ بعد أن قرأت هـذه القصة .... أحسست بالراحة .... »

وألقيت اليها نظرة متسائلة فأضافت :

ـ انك لتحس وأنت تقرأها بأنه لا خطأ فيما بيننا .

وكانت تتكلم فى نشوة غامرة ، وكأنها أماطت اللثام فجأة عن حقائق الحياة مجتمعة .

وقرأت هذه القصة ثلاث مرات حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب ، وفى كل مرة من تلك المرات كنت أكتشف خلال سطورها معانى جديدة ، كما كنت أخلص بتفكيرى الخاص الى أفكار جديدة . كنت فيما مضى أقرأ كثيرا ، ولكنى كنت أقرأ كتبا لامعنى لها لم تكن تخلف أثرا سوى خيـال فج يظل دواما على السطح ولايقتحمه ، أمـا فى تلك القصـة وفى الكتب الاخرى المتشابهة التى صرت أبحث عنها على الاسوار والعربات وأحيانا فى المكتبات ، فقد عثرت على معنى معقول لكل شىء ، وخيل الى فجـأة أو بالتدريج ـ لا أدرى ـ أن شيئا فى داخلى وجد نفسه .

***

اننى لا أكاد ألقى نظـرة الى الوراء الآن وأذكر ذلك السطح الذى عشت فيه تلك الفترة الغريبة من حياتى . وأذكر احسان بجسدها الناعم اللدن المشحون بالرغبة ، ورأسها الصغير الجميل الذى تملؤه أفكار أكبر منه . كما أذكر يوم قررنا معا ـ تحت تأثير آرائنا الجديدة المشـتركة والتى يمكن تلخيصها فى عبارة « ولا يهمك ... » أن ننقل نشاطنا الغرامى الى شقتها .

ولكنى لا أذكر ذلك كله الآن الا وتملكتنى رغبة فى الضحك ، ولايثير هذه الرغبة مثلما يثيرها بوجه خاص ذلك الحماس الغريب الذى كان يهز كيان (احسان) عندما كانت تقول « ولايهمك » لتخفف من حدة الخوف الذى كان يتولانى عندما أطأ أرض شقتها ، ثم موقف زوجها عندما فاجأنى هناك .

انها أمور تبدو الآن ولا أهمية لها ، ولكننى حتى هذه اللحظة احاول عبثا تفسير ذلك الهدوء العجيب الذى واجهت به احسان الموقف وكان كل ذرة فى جسدها تهتف (ولايهمك) دع الصدمة تقتل العجوز دون أن نمد أيدينا اليه ...

ان هناك نوعا خاصا من الناس وجد بطبيعته ليتلقى نوعا خاصا من الافكار والنظريات .. واحسان كانت من ذلك النوع الذى أنا منه ، فكنا نكون معا فى الخفاء جزيرة صغيرة فى حياة مضطربة لاتقوم على أساس من أفكار أو نظريات ، وانما على أساس واه من روابط وقيود سطحيةلامعنى لهـــا .

اما كيف تصرف الزوج العجوز فىنهاية ذلك اليوم بعد أن أثار فضيحة فى البيت ؟ فاننى لأحس بالامتعاض كلما عاودتنى ذكراه · فقد كان القرار الخطير الذى اتخذه هو أن يترك الشقة الى شقة أخــرى فى حى بعيد ..

لقد كان « ابراهيم افندى عبد الحفيظ » رجــلا غبيا ، لا لانه لم يطلق زوجته أو لانه لم يسلمنا للشرطة ، بل لانه فكر فى الانتقال من حى الى حى . صحيح أن الناس من حوله سيتغيرون ، وستكون الحقيقــة محجوبة عن جيرانه الجدد ككل الحقائق ، ولكن زوجته ــ وهذا هو المهمــ لم تتغير ، وقد صارت أفــكارنا أكثر ثبــاتا لديهــا ، ولكل بيت سطح ، والشباب الظمآن فى كل مكان .

وعلى اى حال ، فقد تركت أنا بدورى ذلك البيت ، أو بعبارة أدق طلب منى أن اجلو عنه . فلقد صعد الى فى اليوم التالى وفــد تكون من ثلاثة من السكان يراسهم صاحب البيت ، وطلبوا منى فى أدب أن احمل حاجاتى وأرحل · ووقفت عاقدا ذراعى فوق صدرى أتأملهم فى صمت ، فبدوا لى وكأنهم يرتعدون ؛ وأحسسـت أنى سيد الموقف ، كما خطر لى أنهم لم يطلبوا منى الرحيـــل خــوفا منى فحسب ، بل لانهم لايثقون فى أنفسهم وفى زوجاتهم أيضا ، فابتسمت .

وانتهى الموقف بأن وافقت على مطلبهم ، فعادوا ادراجهم بنفوس راضية بالنصر الذى أحرزوه .

***

فى الوقت الذى جلوت فيه عن بيت « السيدة زينب » كان العــام الدراسى قد أوشك على نهايته فلم يبق منه غير شهر . وقدتخلصت من سريرى الحديدى الذى يشبه اسرة المستشفيات بالبيع ، وأمضيت ذلك الشهر فى فندق حقير بالقرب من ميدان باب الحديد .

وفى بداية السنة الدراسية الجديدة ، قررت أن اجــرب طريقــة جديدة للسكن كان أخى الطبيب قداقترحها على ، وذلك بأنأسكن حجرة مفروشة مع عائلة . وبدأت البحث بالفعل ، فلجأتالى عدد منالسماسرة

حتى وقعت أخيرا على سمسار ثرثار « بحى العجوزة » دار بى على عدد من البيوت ، ثم قادنى الى شقة « ميمى هانم » . وراح ونحن فى الطريق يعدد لى محاسن الشقة بوجه عام والحجرة التى سأستأجرها بوجه خاص ، ويروى لى ملخصا عن حياة ميمى هانم ، ثم مال على أذنى هامسا برغم أن الطريق كان خاليا تماما من الناس .

« ان ميمى هانم مشلولة ، وفى امكانك أن تصنع ماشئت بحجرتك، وحتى اذا هى عرفت فان تعترض ؛ خلها على الله ياعم » .

ولم أهتم بما كان فى تلك الهمسة من تشويق ، فقد كان رسوبى فى امتحان العام السابق وفضيحة ابراهيم أفندى عبد الحفيظ قد تركا أثرا غريبا فى نفسى لم تجد معه عبارة « ولا يهمك .. » التى كنت أرددها لنفسى مرات ومرات كل يوم ـ لذلك لم أكن فى حاجة الى أن تكون صاحبة الشقة مشلولة .

***

واستقبلتنا بالباب صبية كانت تبدو فى الرابعة عشرة من عمرها ، وان كنت قد عرفت بعد ذلك أنها أتمت الخامسة عشرة . كان جسدها الضئيل غارقا فى قميص نوم فضفاض فلم أر لها صدرا . وكانت شفتاها الرقيقتان مضمومتين فى حزم ، وشعرها الاسود الناعم تتناثر خصلاته فى اهمال حول وجهها الغامض الصغير .. وعيناها السوداوان الواسعتان تحملقان فينا فى بله .. فلم يعجبنى منها وقتئذ غير شعرها وعينيها ..

ومال السمسار برأسه عليها وكأنه يخصها بسر وسألها ،

ـ ماما موجودة ؟

فكان ردها أن حولت عينيها الى وحدقت فى وجهى برهة ، ثم تركت الباب مهرولة لتعود الينا بعد قليل فتصحبنا فى صمت الى الحجرة المعدة للايجار ، وكان اسم هذه الصبية « روز » .. هل معك سجاير ..؟

***

كانت الشقة تتكون من ردهة واسعة وثلاث غرف تحتل احداها « ميمى هانم » على حين تستقل « روز » بأخرى .. وكان فى الردهة مائدة سفرة ، وبوفيه كبير تستقر فوقه زهرية من الخزف تهشم جزء من حافتها ، وتشغل جانبا من الردهة « كنبة ستوديو » قديمة لاتزال تحتفظ بأناقتها . وعلى الحائط صورة كبيرة لرجل مطربش يطل على المكان بعينين ثابتتين وكأنه يخفره ، وصورة أخرى لامرأة شابة فى زى فلاحة تجلس

على الارض متكئة على « بلاص » . والبيت كله يوحى بعز قـــديم يلفظ أنفاسه .

وكان السمسار قد تركنى فى حجرة العجوز وانصرف بعد أن أنهى مهمنه ، واستقر بى الرأى على الاقامة بالبيت . وكانت العجوز ترقد فى سريرها مغطاة الى النصف بملاءة بيضاء مبقعة ، وتبدو وكأن كل ما فيها ميت ، فيما عدا عينيها المحملقتين المحوطتين بدائرتين من السواد ، ولسانها الذى لم يتوقف هنيهة عن الكلام . كان لسانها وعينـــاها تفيض بحياة وحشية غير معقولة ، لدرجة لا تملك معها الا أن تحس بفقدان أعصابك . وبينما كانت تتكلم رحت أتأملها كموضوع للوحة لا يبدو فيها غير عينين وقحتين تستغرقان نصفها ، ثم خطوط ودوائر تنطلق الى أبعاد غير متساوية تستغرق النصف الآخر . وفى اللحظة التى بدأت فيهـــا أفكر فى طريقة يمكن التعبير بها عن لسانها فى اللوحة ، انطلق هذا اللسان سائلا .

ـ هل هذه أول سنة لك فى الجامعة ؟.

ـ لا .

وظلت ساكتة استعدادا لســـماع المزيد منى . غير أنى لم أضف حرفا ، فقالت :

ـ هل أنت طالب فى الحقوق ؟

ـ لا .. فى كلية الفنون .

ـ آه .. الفنون .. قلت لى .

وهزت رأسها ، وتنهدت ، ثم راحت أصابعها الجافة تعبث بغطائها وقد طأطأت رأسها وبدا عليها وكأنها راحت فى غيبوبة . ثم التفتت الى وقالت :

ـ كنت أعرف طالبا فى كلية الحقوق .. زمان .

ـ هل كان يسكن هنا ؟ .

ـ هنا .. ؟ لا .. أنت أول من يسكن هنا ، لقد كنت أعرفه .. زمان .. كان جارا لنا .

وسكتت مرة أخرى ، ثم عادت تقول وقد عاد الى عينيها نشاطهما الوحشى :

ـ لا تؤاخذنى ، كل الرجال يســـتحقون قطع رقابهم ، لا ضمير عنـــدهم . كل الرجال .. الا .. الله يرحمه محفوظ بك .. هل رأيت صورته .. ؟

انها معلقة فى الصالة ٠٠ كان رجلا ولا كل الرجال ٠٠ ولكن الموت لا يختار سوى الطيب ٠

وأرسلت تنهيدة عميقة ثم استطردت :

ـ لم يدم زواجنا ـ يا حسرة ـ غير ثلاث سنوات ٠٠ ثم مات ٠٠ لقد مات قبل أن أصاب بهذه المسيبة بسنة واحدة ٠٠ الله يلعنه «بيبى»٠٠ ألف لعنة تنزل عليه ٠٠

ـ ومن هو « بيبى » ٠٠ ؟

ـ الكلب الاسود الذى كان سببا فى هذه المصيبة ٠٠ وهذا جزاء المعروف ٠٠ صحيح خيرا تفعل ٠

فقاطعتها سائلا :

ـ وكيف كان الكلب سببا فى هذا ؟

ـ سأحكى لك ٠٠ انقطع النور وكانت الدنيا ليــلا ٠٠ وكنت فى حجرتى أجرب فستانا جديدا ٠٠ حتى الفستان كان لونه اسود ٠٠ ان اللون الاسود نذير شؤم بحق ٠٠ ولكن ما العمل وقد كنت حزينة على المرحوم ، فهو يستحق الحزن عليه العمر كله ٠٠ اننى لا أزال أعيش فى خيره ٠٠ هل تعتقد انى فكرت فى تأجير الحجرة لانى محتاجة ٠٠ أبدا والله ٠٠ الحمد لله مستورة ٠٠ فأنا أحصل على معــاش من وراء محفوظ بك ٠٠ ألف رحمة تنزل ٠

فقاطعتها ثانية :

ـ ان هذا لا يهم ٠٠ المهم هو كيف تسبب بوبى ٠

ـ بيبى يابنى ٠٠ كان اسمه بيبى ٠

ـ ماذا فعل بيبى ٠٠ ؟ هل عضك ٠٠ ؟

ـ عضنى ٠٠ ؟ ٠٠ وهل كان يعضنى ٠٠ ؟ ٠٠ انه لم يفعلهــا عمره ٠٠ ولكنه كان راقدا أمام باب الحجرة ٠٠ فلم أره ٠٠ لان النور كان قد انقطع ٠٠ فأكملت فى تبرم :

ـ والدنيا كانت ليلا ٠

ـ دهسته ٠٠ وما أدرانى أنه كان راقدا هنــاك ٠٠ كنت ألبس يومها حذاء كعبه سبعة سنتى ٠٠ لم أكن ألبس فى تلك الايام ـ وشرفك ـ الا الاحذية الغالية ٠٠ ياحسرة ٠٠ منذ ثلاث سنوات لم أضع حذاء فى قدمى ٠

نهايته ... هل شربت شيئا .. ؟ .

ـ لا .. شكرا ..

ـ وهل هذا يصح ؟ .

وانفجر صوتها ينادى « روز » ثم استطردت :

ـ وما أســـمع الا صرخة تنطلق من الكلب ، جعلت جسمى كله ينتفض ، ولم أعد أعرف رأسى من رجلى .. وبعدها بأيام ثلاثة لا أذكر أو أربعة .. أصابنى ما أصابنى . أليس هو السبب اذن . ؟

فقلت عابثا :

ـ الحق يقال .. السبب هو ادارة النور والكهرباء .. فمن حقك أن ترجعى عليهم بالتعويض .

ـ صحيح . ؟ .

ودخلت « روز » تحمل صينية شاى صغيرة ، وكانت قد استبدلت بقميص نومها فستانا بسيطا أبرز ما كان قد خفى من معالم جسمها ، فبدت أكبر سنا ، وان كانت سمات الطفولة لم تفارق وجهها ، ونظرتها التى يتخللها شىء من البلاهة لم تبرح عينيها الجميلتين .

ووضعت الصينية فى صمت على ترابيزة صغيرة كانت أمامى وهى تحدق فى وجهى وكأنها ترى قردا لاول مرة .. ثم انصرفت .

وسألت العجوز :

ـ هل هى ابنتك من محفوظ بك ؟

فلم تجب على الفور ، وانما تريثت حتى اختفت روز ثم قالت :

ـ انها ليست ابنتى ، بل هى ربيبة أحد الملاجىء ، وقد تبنيتهـا وهى لا تزال صغيرة فلم تكن تتجاوز الثامنة أو التاسعة .. لكنها أصبحت عروسا كما ترى .. هل أعجبتك ؟ . لقد كنت والله أعاملها كابنتى ، وأدخلتها مدرسة خاصة مصاريفها خمسون جنيها فى السنة حتى حصلت على الاعدادية .. ولكن ما فائدة عمل الخير .. وقد سمعت بنفسك مافعل بى الكلب الاسود .. لا تظن أنها كانت تؤدى عملا فى البيت .. أبدا والله .

لقد كان عندى من الخدم .

واستطردت تروى لى قصة الخدم واحدا واحدا ، ولم تنس أن تتطرق فى حديثها مرة أخرى الى محفوظ بك ، حتى اذا ما انتهت كانت رأسى قد

احتلها صداع مؤلم ، وكنت أحس بالغثيان ، فانتفضت واقفا قبل أن تتم عبارة كانت منطلقة من فمها ، وقلت :

ــ عن اذنك ٠٠ سأتغيب ساعة لأحضر حاجاتى ٠

وتركتها وفى رأسى الموجعة حياة أخرى مثيرة لم أكن أعرف شيئا عنهــا ٠

وأجلت عينى فى الردهة باحثا عن «روز» ، ووقع بصرى على صورة « محفوظ بك » فلم أمنع نفسى من احساس تسرب اليها بالازدراء لهذا الرجل ٠ والغريب أننى لم أتخل عن هــذا الاحساس حتى آخر دقيقة أمضيتها فى تلك الشقة ، دون محاولة منى لان أبحث لذلك عن سبب ٠

***

ولحقت بى روز عند باب الشقة ، ووقفت مبتسمة تطرقع أصابعها، ثم قالت فى حياء :

ــ هل ستسكن حضرتك عندنا ٠ ؟

ــ نعم ٠

ــ متى ستأتى ؟ الليلة ٠ ؟

ــ أعتقد ٠٠

وفتحت لى الباب ثم قالت وقد اتسعت ابتسامتها :

ــ لا بد أن العجوز ضايقتك برغيها ، ماذا حكت لك ؟

ــ لا أذكر ٠٠ ولا بد أنها تحفظ تاريخ العالم ٠

فضحكت فى صفاء وهمست :

ــ هل قصت عليك قصة الكلب الاسود ، انها قصتها المفضلة ٠

هل معك مفتاح ؟

ــ لا ٠٠

ــ اذن سأنتظر لأفتح لك ٠

***

كنت قد عقدت عزمى على أن أتخلى عن النســاء الى حين ، والواقع أنى لم أجد فى سبيل ذلك أية صعوبة ، فلقد استحالت رغبتى فيهن الى

شعور بالاشمئزاز كانت تنميه باستمرار تلك المرأة المشلولة ، كما كانت تدعمه الاجساد العارية التي تنتصب أمامنا بمرسم الكلية كل يوم في أوضاع جافة ميتة ٠

كنت قد فقدت اهتمامي اذن بالشيء الوحيد الذى كان يثير اهتمامي، ومن ثم أصبحت بلا اهتمامات ـ أما عن التصـــــوير فانه لم يكن ليثير اهتمامي الا باعتبـــــاره أمرا على أن أؤديه ، مثلى فى ذلك مثل الموظف المرتبط بدرجات الكادر ، فهـــو يؤدى عمله دون رغبة فيه ولكنه لا يجد طريقا آخر يسلكه ٠

واذا كنت قد فقدت ــ فى تلك الفترة ــ الحماس بالنسبة لكل شيء ، فقد أتاح ذلك لأفكارى الخاصة أن تنطلق فى كل سبيل ، بلا حماس ، وبلا هدف ، وانما بتركيز شديد ٠ صارت كل الاشياء تبدو لى تافهة ، خالية من المعنى ، تفتقر الى هدف حقيقى معقول ٠٠ الناس الذين يهرولون فى الطرقات يسابقون أقدارهم ، والنـــــاس الذين يتزوجون ، والناس الذين يولدون ، والصراصير التى تفقس بالعشرات كل يـــوم فى مطبخ « ميمى هانم » لتقلق راحة الناس وقصص الحب السخيفة التى تنشأ بين اثنين ، والنمل الذى تنقل طوابيره فى نظـــام وصبر واصرار فتات الخبز وجثث الذباب الميت ٠ كنت أسأل نفسى دائما ، وما زلت أسألها ، ما معنى هذ ٠٠ ؟ ما نهاية هذا ؟ فلا أجد جوابا على أى سؤال ٠؟

***

أما فى الكلية فأنت تستطيع أن ترى جحرا كبيرا للنمل الكبير ٠٠ أسراب الشغالة من طلاب تافهين ، تلمح فى وجه كل منهم غرورا لايدانيه غرور نابليون ٠ كل منهم يرى فى نفسه فان جوخ أو بيكاسو أو دافينشى٠ بل ومنهم من يرى فى نفسه أرسطو أيضا ٠٠ انها مأساة أن يتحول معهد فنى الى مستشفى يشرف عليه أطباء لم يبرءوا هم أنفسهم من المرض ٠

كان يدرس لنا تاريخ الفن أستاذ فى الكلية يعد من أشد المتحمسين للاتجاهات الحديثة فى الفن التشكيلى، وقد وجد حماسه صدى فى نفسى، فبدأت أعمل ذهنى مسترشدا بكل ما قرأت عن هذه الاتجاهات وما عرض لى من أعمال كبار فنانيها ، كما رحت أجمع شجاعتى لآتى بعمل يذهل الجميع ٠ وقررت لأول مرة أن أقدم عملا أرضى عنه مهما كان رأى أستاذ القسم فيه ٠

وكنت فى « الاتيليه » بين ثلاثين طالبـــا نعد دراسة لجسم عار ، موضوعه جسد جميل لفتاة بائسة كانت تجلس أمامنا كالصنم ، لا يحمل وجهها أى تعبير ، ولا تأتى بحركة تنم عن التبرم أو عن الرضا وكأنهـا

ولدت لتؤدى هذا العمل بالذات . ورحت أعمل فرشاتى فى حماس ، وأنا أحس بالطلبة التافهين من حولى يتهامسون ويتغامزون فلم آبه بهم ولم أهتم حتى بالالتفات اليهم .. ثم فوجئت بواحد منهم يتقدم منى قائلا فى تهكم :

ـ كيف حالك ياسنيور دالى ؟ .

فالتفت اليه ورحت أتفحصه فى ازدراء ، ثم قلت :

ـ ماذا تعنى ياتحفة ؟

فأطلق ضحكة سمجة ، وقال :

ـ أعنى أن السرياليين كان ينقصهم مقلد .

فقلت وأنا أكتم غيظى :

ـ أنت تحفة بالتأكيد .

وكان هذا الزميل من هذا النمط من الناس الذين لا تراهم دون أن تزدريهم ، يضحك لغير سبب ، وليس له شكل ثابت ، ولا وجهة محددة ؛ فقلت له بعد لحظة تأمل كل منا الآخر خلالها .

ـ دعنى أرى ما فعلت أنت .

ووقفت برهة أمام لوحته التى كانت تجرى فيها خطوط بدائية لا فن فيها ، ثم قلت :

ـ لاشك انك تجيد الرسم متأثرا بمدرسة أبى زيد الهلالى .. أنت تحفة بالتأكيد .. ثم ضربت فرشاتى أربع ضربات متعارضة فى الوجه الذى رسمه ، وقبل أن يفيق من دهشته قلت له وأنا أبتعد :

ـ بهذا يكون لرسمك معنى .

والغريب فى الموضوع أن هذا الشخص أصبح صديقى الوحيد بعد ذلك ، ولعلك تعرفه فهو « رفاعى » أحد أبطال العوامة .

أما عن تلك المحاولة الجريئة التى قمت بها ، فقد قدر لها أستاذ القسم ـ وهو أستاذ غير الاستاذ المحاضر ـ صفرا من مائة .. ولو وقف الامر عند هذا الحد لكان مما يمكن احتماله ، اما أن يقدر لعمل « رفاعى » تسعون من مائة ، فهذا هو ما لا يمكن قبوله بحال . ان هذه الكلية ، ككل مكان آخر ، تحكمها مجموعة غريبة من المتناقضات ، فأنت لا تكاد تعرف فيها ما الخطأ وما الصواب ، حتى انك لتحس بأن كل شىء خطأ وكل شىء صواب فى نفس الوقت . والاساتذة فيها لا يدلونك على شىء ، وانما هم

يحفزونك ، فترى الاستاذ يمر بك كالكابوس وسيجاره أو سيجارته فى فمه ، فاذا ما أسعدك الحظ وألقى نظرة على عملك ، فقــد يكون تعليقه الوحيد ، هزة رأس ، أو تمتمة غير مفهومة ، أو اشاحة باليد ، أو فيض من الكلام الفارغ اذا كان معتدل المزاج • ثم تأتى مهمته الاساسية بعــد ذلك ، مهمة الآلهة ، أعنى مهمته فى تقييم ما يقدمه النمل من أعمــال وضرب درجات لها •

وما دام هذا هو الوضع ، وما دمت غير مكلف باصلاح العالم ، فان على أن أقدم للكلية ما يريده أستاذ القســم ، متتبعــا خطى الاكاديمية المهارة ، بلا حماس ، وبلا رغبة ، ولأدفن الفن الحقيــقى •• الفن الذى دافع عنه بحماس أستاذ آخر ، فى البيت •

***

كنت أرسم كثيرا بالبيت ، كمــا كنت أقرأ كثيرا ، لا لشىء سوى لأنى لا أجد ما أفعــله غير الرسم والقراءة ، فلست من رواد السينما لأنى أكره وسائلها العقيمة فى عوض الأكاذيب على الناس ، ولم يكن لى أصدقاء اذ لم أعثر على من أصادقه ، والاضواء التى تذخر بها المدينة تتيرنى ، فهى تبهر أكثر مما تضىء •

وكان البيت يوفر لى ما أبتغيه من هدوء • ولكن هــذا الهدوء كان موقوتا باستغراق العجوز فى النوم ، أو باعتدال مزاجها اذا ما استيقظت •• ومزاج العجوز متقلب كالطقس فى الشتاء ، فهى لا تفتأ تعكر الهدوء بزوبعة باردة من الصراخ الذى لا مبرر له ، ثم سرعان ما تعود الى الصمت ، بل وسرعان ما تسمع ضحكاتها ترن فى البيت كطلقــات « المتريوز » • وطبيعى أن تكون «روز» دائما محور هذا التقلب ، ولكنها كانت قداعتادته حتى لتسمعها تدندن بأغنية شائعة فى الوقت الذى تلعنها فيه العجوز ، ثم تطلق ضحكة صافية مرحة عندما تهددها بالطرد ، « كما طردت الكلب الاسود » ••

***

كانت عــلاقتى « بروز فى الاشــهر الاربعــة لاقامتى لا تتعدى التحيات التقليدية السخيفة ، بل لقد كنت أتجاهلها فى بعض الاحيان الا اذا ابتدرتنى هى بالتحيــة • ولا أدرى لماذا تجمدت علاقتى بهــا فى تلك الاشهر على هــذه الصورة ؟• قد يكون ذلك بسبب موجة الاشمئزاز التى كانت تجتاحنى آنذاك ، أو لعلى كنت أراها طفلة لا تحتمل أن أمد يدى اليهــا ، الحق أنى لا أســتطيع أن أذكر لك سببا محــددا ، غير أن الامر المؤكد أننى كنت لا أراها الا وذكرت أختى « نوال » التى كانت فى سنها

وكنت اذا واجهتها في مكان ما بالشقة ٠٠ وكثيرا ما كان يحدث هذا ٠٠ أسببلها اضطرابا لم يكن يخفى على، فقد كانتمن السذاجةبحيث لا تستطيع أن تخفيه ٠ كان خداها يصطبغان بحمرة دافئة ، وتتشابك أصابعها ثم لا تلبث أن تحول عينيها الى الارض ٠ وبرغم ذلك فقد كنت أحس بها تتبعنى بنظراتها آينما ذهبت من فوق « الكنبة الاستديو » حيث كانت تمضى معظم وقتها تستمع الى الراديو آو تتصفح مجلة ٠ ولم أفلح فى ذلك الحين فى تكوين رأى واضح عنها ، فقد كانت تبدو بلهاء أحيانا، وفى أحيان أخرى تبدو فى ذكاء لا يتيسر لمن هن فى سنها ٠ وعلى أى حال فقد كان اهتمامها بى يظهر جليا فيما تبذله من جهد لاصلاح حال حجرتى وترتيب محتوياتها بعد أن أغادر البيت كل صباح ٠

***

أما علاقتى بالعجوز فقد اتخذت طريقا آخر شاذا ، أعنى فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه علاقة روز بها ٠ وعلاقة « روز » بها كانت مثالا للشذوذ ، فانت لا تستطيع أن تقطع بما اذا كان هناك حب يربطهما ، أو حقد تحمله كلاهما للأخرى ٠ ولكن المقطوع به أن « روز » كانت تجد لذة غريبة فى أن تثيرها حتى تراها تصرخ وتضرب السرير بكلتا يديها ، فاذا ما استسلمت العجوز لعجزها أطلقت العنان لدموعها ، فترى روز تقترب منها فتقبلها فى حنان لا رياء فيه ٠

ولم تحبنى العجوز أبدا ، ولعل ما كان يثير كراهيتها لى أننى لم أكن أدخل حجرتها الا لأسخر منها ومن المرحوم ، الأمر الذى كان يروق لروز كثيرا ، ويدفعها للابتسام أو الضحك الصريح الذى كان يثير سخط العجوز أكثر مما يثيرها كلامى ٠

***

هل جربت في حياتك احساسا بالمقت لكل شيء ، والسأم من كل شيء ، والسخط على كل شيء ٠؟

كان هذا الاحساس قد بدأ يلازمنى فى ذلك الحين حتى أننى كثيرا ماكانت تنتابنى رغبة فى أن أفعل أى شيء لأتغلب عليه أو لأخفف من حدته ، فالتمست عذرا للمنادين بالحرب فى كل مكان ، فالملل من الحياة احساس مرهق لا يستطيع الانسان تحمله فما بالك بملل شعوب بأسرها ٠

ولم يكن ليخفف من حدة الملل والسأم اللذين كنت أحسهما أن أشاكس العجوز ، ولا أن أصنع الشاى لنفسى بنفسى مرات ومرات فى

اليوم الواحد ، ولا أن أسود لوحات بأكملها بظلال لا يفهمها غيرى ، فثمة رغبة مبهمة كانت مترسبة فى القاع حاولت كشفها دون جدوى ، فأقنعت نفسى فى النهاية بأنها ليست سوى الرغبة فى عمل شىء غريب وجديد لم يقدم عليه أحد من قبل .

ووصلنى فى أحد تلك الأيام خطاب من أبى يحمل حوالة بريدية ، ومجموعة من النصائح يحضنى فيها على التمسك بأهداب الدين ، والمثابرة على الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ففكرت فى أن أرد عليه بخطاب أشكره فيه على الحوالة ، ثم ألعن فيه نصائحه ، وأعلن اليه رأيى فيه كاملا .. وسودت ورقة بالفعل بكل ما خطر لى ، فأحسست بالراحة ، ثم مزقت ما كتبت .

وفكرت مرة فى أن أنتزع صورة محفوظ بك من مكانها فأحطمها على مرأى من العجوز ، ومرة أخرى قررت أن أسدد لكمة الى أستاذ القسم فى قلب « الأتيليه » . ولكنى كنت أتراجع دائما فى اللحظة الأخيرة عندما كنت أرى الامور من حولى تسير سيرها المعتاد ، هادئة رتيبة مثل الموسيقى اليابانية ، فلا تحتمل ما كنت أعتزمه من ضجة .

***

ودخلت المطبخ فى مساء ذات يوم لأصنع كوبا من الشاى ، وكانت روز هناك ، فلم تخرج وظلت مكانها أمام « البوتاجاز » ترقب حلة كانت تهدر . وكانت تبدو متوترة قلقة وهى تحاول ابقاء عينيها بعيدا عن وجهى وتبادلت معها بضع كلمات لاأذكرها ، لم أقصد بها سوى أن أبدد الصمت لحظة ، وفجأة التفتت الى وسألتنى فى تردد .

ـ هذه الصور التى ترسمها ... هل ترسمها من عقلك .؟!

فنظرت اليها ولم أجب فأضافت متلعثمة :

ـ أعنى .. هل لا بد من وجود شخص أمامك حتى ترسمه .؟

وتذكرت أن بحجرتى دراسة لجسم عار أعددتها للكلية، وفكرت فى أنها لا بد أن رأتها ، فقلت :

ـ اذا كنت أرسم امرأة عارية ، فلا بد من وجود امرأة عارية ...

فاضطربت وأشاحت بوجهها ، فقلت لها :

ـ هل تحبين أن أرسمك يا روز .؟

فأجابت فى ارتباك :

ـ من .... أنا ...؟

ـ بثيابك كاملة .

فابتسمت ، ثم هزت كتفها فى حركة تحمل معنى الرضا أكثر مما تحمل معنى الرفض .

***

وتسللت « روز » الى حجرتى فى تلك الليلة ، ولم تكن قد دخلتها فى وجودى من قبل فأجلستها على أحد المقاعد وشرعت أرسم لها «بورتريه» على حين كنت أسمع حديثها الخافت اللاهث ردا على أسئلتى . وقد وجهت اليها كثيرا من الاسئلة فى تلك الليلة ، عن نفسها ، وعن العجوز ، وعن حياتها الصغيرة التى تمثلت لى وهى تقصها كخط واحد ممتد .. يبدأ من نقطة مجهولة .

وفى الليـلة التالية جاءتنى بنفسها فتـابعت ما بدأت فى الليـلة السابقة . وتـكررت زيارتها ليلتين أخريين حتى انتهيت من اللوحة ، فوقفت أمامها أتأملها ، فى حين وقفت هى بجـانبى توشك أن تلتصق بى وهى تحدق فى صورتها مبهورة كأنما تشهد معجزة .

وسألتها :

ـ هيه ... هل أعجبتك ...؟

فرفعت الى وجهها الغبى الجميل ، وعلى شفتيها ابتسـامة اعجاب ، وفى عينيها أكثر من تعبير . لم تفتح فمها ، بل لم تحرك شفتيها ، ولكننى اكتشفت فجأة وكأننى قرأت فى وجهها .. أن أروع ما يمـكن أن أفعله هو أن أستحوذ عليها .

***

ذات ليلة وأنا صغير كنت وحيدا على شاطىء ترعة بلدتنا ، وكان الليل قد أوغل ومع ذلك لم أجد رغبة فى أن أترك مكانى وأعود الى البيت . فقد كانت تلك الليلة احدى ليالى الصيف القمرية الجميلة ، وكانت أشعة القمر الناعمة تتكسر على وجه الترعة فى حنان ، والزراعات الداكنة تمتد حتى تتعانق مع الأفق ، والضفادع لا تكف عن ارسال موسيقاها الغليظة . كان كل ما حولى يبدو جميلا رائعا يفيض عذوبة حتى أن قلبى أصـابته رعشـة ... وأحسست فجـأة ولاول مرة بأنى أكره أبى .. وتمنيت لو مات . ثم استدرت وعدت أدراجى الى البيت .

مثل هذه اللحظات ، هي الصلاة الحقيقية التي تهزني ··· هذه اللحظات التي ينكشف لك فيها فجأة احساس هائل لم تكن تتبينه من قبل ·· حب أو بغض أو رغبة ، سيان ، المهم هو أن يتكشف لك فيها شيء تحس بأنك أمضيت حياتك في البحث عنه ·

لقد ظلت « روز » أمامي شهورا دون أن أعير أنوثتها أدنى اهتمام ، ولم أفكر على الاطلاق في أن أمد يدي اليها · أما في تلك اللحظة ، وهي متطلعة الى بوجهها الغبي الجميل ، وفي عينيها وعلى شفتيها ذلك التعبير العميق ، تكشفت فجأة أن لابد لي من ان استحوذ عليها ، واستجاب كياني كله لهذا الاكتشاف ، فانتفضت الدماء في عروقي ، وثارت كل ذرة من جسدي ، وانحنيت على ذلك الوجه المتطلع فألصقت به شفتي ·

جمدت روز مكانها ، وظلت تحدق في وجهي مشدوهة وقد ماتت ابتسامتها ، وانكتمت أنفاسها ، ومضت لحظات صامتة غامضة ، فامتدت أصابعي الثائرة الى شعرها الذي كان أول ما أحببته فيها ، غير أنها تركتني فجأة وجرت الى حجرتها فأغلقت بابها دونها ·

***

أما ما حدث بعد ذلك في نفس الليلة ، فلا أدري هل حدث قبل الفجر أو بعده · كل ما أذكره انني ظللت مؤرقا في تلك الليلة ساعات طويلة ثقيلة ·· وأن الديكة كانت تتصايح على أسطح قريبة ·· وأني تركت حجرتي فسرت حافي القدمين الى بابها ·· وكان البيت مستغرقا في النوم ، تجثم على قلبه ظلمة جافة باردة · وفتحت بابها في هدوء ودفعت برأسي داخل حجرتها فلم أر غير الظلام ، وناديت في صوت خافت خشن :

ـ روز ·

وانتظرت برهة ، فسمعت همسة مبحوحة ردا على ندائي :

ـ أستاذ جميل ··؟

لم تكن قد نامت هي الاخرى اذن ·· وكانت وكأنها تنتظرني أو تنتظر أية معجزة أخرى ··· فقلت في صوتي الخافت الخشن :

ـ نعم ··· أنا جميل ··

وساد السكون ، فلم أسمع خلال الظلام أي صوت ، حتى اذا ما تحسست طريقي الى قلب الحجرة ، سمعت في ركن منها أنفاسا تتردد عميقة ، منتظمة متلاحقة ·· كدقات القلب ·

فى تلك الليلة اكتشــفت أن روز تحبنى ، وفى الليــالى التــالية اكتشفت أنها تحبنى بجنون · لم تكن تجيد التعبير عن ذاتهــا ، وبرغم ذلك كنت أفهمها ، فحركاتها وتصرفاتها كانت تصدر عن احساس حقيقى عميق ·· ساذجة ، بسيطة ولكنها معبرة ·

قالت لى أنها أحبتنى منذ رأتنى مع السمسار ، وانى كنت أول رجل دخل حياتها ، فعاش على مقربة منها ، تراه ساعات طويلة من النهار والليل ، وتتحدث اليه ، وتنصت له ، وترقبه يروح ويجىء أمامها بثياب البيت فى غير كلفة · كما قالت لى انها لم تكن تتصور أن يكون الرجــل مثيرا الى هذا الحد ·

وحدثتنى عن «محفوظ بك» فقالت انه لولا صورته المعلقة على حائط الردهة لما ذكرت وجهه ، فهو لم يكن يقيم مع العجوز بل كان يترددعليها فى بعض الليالى ، فكان باب غرفتهــا يغلق عليهمــا ، وتظل هى وحدها تتسائل عما يجرى وراء هذا الباب حتى يغلبها النعاس ·

ولم يكن فى حياة « روز » كثيرا مما يحكى ، فكانت أحاديثها تدور وتدور حول أمور بعينها ، ماضى العجوز كمــا سمعته من « عزيزة » التى كانت تعمل فى خدمتها الى عهــد قريب ، والكلب الاسود صاحب المعجزة ، وأفكار صغيرة تافهة لم أكن أهتم بالاستماع اليها ·

وسألتنى أكثر من مرة هل كنت أحبها ؟ فكنت أجيبها فى كل مرة « ان الحب بين الرجل والمرأة بمعنــــاه الحقيقى هو أن يشتهى كل منهما الآخر وأنا اشتهيك يا روز » ·

فكانت تقول :

« ولكننى أحس شيئا آخر مختلفا ·· لا أعرف كيف أصفه لك ·· »

وسواء اقتنعت بوجهة نظرى فى النهاية أو لم تقتنع ، فقد سارت علاقتنا فى مجراها الخفى ، حارة متدفقة · ولم يعد فى طاقة أى انســـان أن يوقف تدفقها ، أو أن يخمد جذوتها ·

حقيقة أنى ظللت شهورا لا أعمــد الى أن أفقدها شيئا يبــدو هاما وجوهريا فى نظر الناس ، ولكننى برغم كل شىء كنت أجد سعادة صارخة بين ذراعيها الصغيرين ، وكنت أعيش فى روعة الاحساس بأنى استحوذ عليها ··

***

وفهمت « روز » كما لم أفهم انسانا من قبل ، والحق أنهــا لم يكن فيها ما يصعب فهمه ، فقد كانت كالكتاب المفتوح ، صفحاته بيضاء ليس

فيها سوى «نغبشة» خفيفة هى أفكارها السطحية التى كونتها عن حياتها اليومية اليسيرة . وعبارات حفظتها دون أن تفهم معنى الكثير منها ، ومن ثم يمكننى القول بأن رأسها كان خاليا تماما من الافكار ٠

فكان يلذ لى أن أحدثها عن أفكارى ، وأتأملها وهى تصغى الى بكل كيانها ، فتلوح عليها الدهشة مرة ، وتضحك مرة ، ولا تفهم شيئا فى كل المرات ٠ وبرغم ذلك لم أكن أكف عن الحديث اليها ، لا لأننى كنت أبغى أن أخلق منها شيئا جديدا ، فذلك لم يكن يهمنى ، وانما لأنى كنت لا أجد شخصا آخر يستهويه مثل هذا الحديث فينصت الى فى صبرها واهتمامها ، اذ كان لا بد لى من أن أحدد لنفسى حقيقة ما أريد بصوت عال ٠٠

***

وكانت روز قد اعتادت أن تمضى معظم الوقت معى « فتتكور » على الكنبة الفوتيل ، التى تحتل جانبا هاما من حجرتى ٠ وتذهب فى متابعتى بعينيها وأنا أرسم ، وأنا أقرأ ، وأنا أتكلم ٠

***

سألتها مرة ، وكانت تجلس بجانبى تتصفح «مجلة» لتقتل الوقت حتى أفرغ لها ؟

ـ لماذا تعيشين يا روز ٠٠؟

فصدمت بالسؤال ، أول الأمر ، ثم ما لبثت أن التصقت بى وقالت :

ـ أعيش من أجلك ٠٠٠

ـ وقبل أن تعرفينى ٠٠ لماذا كنت تعيشين ؟ ٠

فراحت تفكر وقد انطبع على وجهها تعبير ساذج عن حيرة كبيرة ، ثم قالت وهى تهز كتفيها :

ـ لا أدرى ٠٠ ولماذا يعيش الناس ٠٠؟

وانفجر فى تلك اللحظة صوت العجوز يناديها ، فانتفضت من جانبى وهمست :

ـ لقد صحت المشلولة ٠٠

ثم توقفت عند باب الحجرة ، واستدارت لتقول وهى تضرب رأسها براحتها فى ظرف :

ـ ان ما يحيرنى ٠٠ هو لماذا تعيش المشلولة ٠٠ هذا ما سيجننى ٠

***

لم تكن العجوز تعرف شيئا عما بيننا ، ولكنها لم تكن من الغباء بحيث لا يتطرق اليها الشك ، فأمام سذاجة « روز » وعدم خبرتها فى كتمان مشاعرها ، وحذق العجوز وخبرتها فى تلك الامور ، كان فى مقدورها أن تخمن ما يجرى وراء ظهرها ٠ وقد حدث مرة أن قالت لروز :

ـ مالى أراك مفككة هكذا ، قولى لى بصراحة يا بنت ، هل تحبين هذا المنحوس ٠٠؟

فأجابتها روز فى عناد :

ـ وماذا يهمك أنت ٠٠ أحبه أولا أحبه ٠

فضربت العجوز كفا بكف ، وقالت :

ـ عاله ٠٠ والله عاله ٠٠ كبرت « المفعوصة » ٠٠ وصارت تحب ٠٠

وأعادت روز هذا الحديث على مسمعى ، فلم يدهشنى أن تقول العجوز ما قالته ، ولم يكن يهمنى أن تعلم بعلاقتنا ، فقد كان ماضيها يطمئننى الى حد بعيد ٠ فالمرأة من أمثالها اذا فقدت القدرة على أن تحصل على المتعة لنفسها ، وجدت لذة فى أن تسمع عن متعة الآخرين ، بل وفى أن يكون لها دور فيها ٠

ذهبت اليها لأسدد الايجار عن أحد الشهور الاخيرة من تلك السنة ، وكانت قد عودتنى أن تلقانى فى مثل هذه المناسبة فى رقة وحنو بالغين ، غير أنها فى تلك المرة استقبلتنى فى فتور مقصود ، ومسكت بجنيهاتى الستة تعدها وتعيد عدها ، ثم سلطت على وجهى نظرة خبيثة وقالت :

ـ ان الاقامة عندنا صارت تروق لك ٠٠ أم أنا مخطئة ؟٠٠

ـ لا .. لم تخطئى ؟ ..

فسكتت برهة ثم قالت :

ـ الغريب ٠٠ أن روز بدأت تتغير هى الاخرى ٠٠

وتنهدت .. فسألتها فى هدوء :

ـ ماذا تقصدين ؟ ..

ـ أقصد انهـا بدأت تنمو بسرعة ·· وقد عرفت فى الشـــهور الاخيرة مالم تعرفه فى عمرها كله .

ـ ان البنات فى سنها .. يعرفن أمورا كثيرة .

ـ على رأيك .. وخاصة اذا تعرفت البنت بمن لا ضمير عنده .. فقلت فى ثبات :

ـ وماذا تعرفين عن الضمير ؟ ..

ـ هه ؟ ..

ـ أقصد .. ماذا تعنين بالضمير ؟ ..

فشردت ببصرها ، وتكلفت تنهيدة ، وقالت :

ـ بعد هذا الشهر ، سيكون ايجار الحجرة سبعة جنيهات .. هل عندك مانع ؟ ..

ـ لا مانع عندى .

فارتسمت على وجهها تعبيرات شاذة تجمع بين الدهشة والفوزة وهتفت :

ـ ألم أقل ان الاقامة هنا تروق لك ؟ .. انت تحب شقتنـا كثيرا .. وهى تحبك ايضا ..

واطلقت ضحكة وقحة عالية ، ثم قالت وهى تسترد انفاسها

ـ اننى كما ترى .. لست غبية مثلها ..

ثم تابعت ضحكها السمج .. وقبل ان اترك الحجرة اشـــارت الى فاذا ما اقتربت منها همست :

ـ بس ·· اياك أن تسبب لنا فضيحة ·· اننى أعيش بسمعتى ·· ويجب أن يظل بيتى نظيفا .. هه .. ؟ .. اعنى كن حذرا ؟

فقلت وانا أحاول عبثا ان اخفى اضطرابى :

ـ اذا كنت تعتقدين أن شيئا ما بينى وبين روز فأنت مخطئة..

فضربت صدرها وقالت فى لهجة تمثيلية مكشوفة :

ـ ياخبر .. وهل أنا مجنونة حتى أعتقد هذا .. استغفر الله

وفجرت ضحكة رقيعة جديدة لم أفهم لها معنى .

تركت حجرة العجوز وانا احس بالغثيان . وبرغم صراحةالموقف، فقد ظللنا ـ أنا وروز ـ نعمـد الى أن يبقى الامر سرا بيننـا ، ولم نهتم بتعليقات العجوز التى تكاثرت فى قسوة وحقد . وكان يخيل الى أنه لو أطلعناها على كل شيء بصراحة لارتاحت ، ولتقبلت الامر بمـزيد من البساطة ، ولكنى كنت احرص على ان يظل السر سرا حتى لا نفقده قيمته الحقيقية .

وبعد ان سافرت الى البلد فى الاجازة السنوية ثم عدت الى القاهرة بعد انتهائها ، اكتشفت أن تغييرا ما لحق هذه الفكرة ، وقـد اكتشفت ذلك بالصدفة . فقد بحثت عن روز فور وصولى ، فوجدتها فى حجرة العجوز ، فما أن رأتنى حتى ارتبكت ثم تجمدت ، فدنوت منها فى خطوات ثابتة واخذتها بين ذراعى وقبلتها متجاهلا نظرات العجوز .

وأفاقت روز فاحمر وجهها وعضت شفتها وقالت فى خجل :

ـ ماكان يصح امامها .

قلت على الفور :

ـ ولا يهمك ..

وكأنى ماجئت الا لأقولها .

وقالت العجوز :

ـ وهل أنا مغفلة .. ياملعونة حتى لا أعرف كل شيء .. ان كلمة اقولها لاتنزل الارض .. كيف حالك ياجميل .. حمد الله على سلامتك .. كيف حال البلد .. هل جئتنا بالفطير المشلتت .. وعسـل النحـل أم لا .. اياك أن تكون نسيت .

❋ ❋ ❋

فى أمسيات تلك الاجازة ، كنت أفر من الكآبة التى تسـيطر على بيوت بلدتنا الى حافة الترعة ، بعيدا عن الناس ـ والنـاس فى بلدتنـا اغبياء الى أبعد حدود التصور ـ فأمضى ساعتين أو ثلاث فى مكانى المفضل الذى حدثتك عنه ، فأتخذ مجلسا من حائط وطيء كان فيما مضى حاجزا «لزاوية الصلاة» وأروح فى تأملات لاحدود لها ، أحاول أن أكتشف شيئا جديدا ، مثلما فعلت يوم اكتشفت ـ وانا صغير ـ فى نفس المكان انى أكره أبى وأود لو مات ..

ولكن الكآبة كانت تفرض نفسها حتى على ذلك المكان ، وكان رأسى يبدو عقيما ، فليس من اليسير على الانسان أن يكتشف شيئا جـديدا

كلما أراد . وهذه الافكار الكبيرة التى نسمع عنها بين حين وحين انما هى وليدة الصدفة ، ولعل هذا مايعطيها أهميتها وروعتها . والناس الذين يهيأ لهم كثير من هذه الصدف يتحولون الى علماء أو أنبياء ، ولكن فكرة الانبياء لم تعد تحظى باقبال الناس كما كانت فى العصور المظلمة القديمة ، ومن ثم فلم يبق غير العلماء . فالعلماء — على الاقل — يقدمون شيئا يلمسه الناس حتى ولو كان فيه فناؤهم .

واذا لم اكن قد تهيأ لى شىء من هذه الصدف فى اية أمسية من تلك الامسيات ، فاننى لم أخرج منها صفر اليدين ، بل لقد توصلت الى تلك الفكرة نفسها ، كما أنى استطعت أن أنظم أفكارى فى هدوء ، ناسيا أبى ومبادئه الموروثة ، ورقة زوجته الغبية ، والنظرات الطرية التى بدأت تلوح فى عينى « نوال » عن غير قصد ، فعدت فى النهاية الى ما بدأت به مع « احسان » ، وهو أنه لا شىء يهم أقل أهمية .

* * *

وماتت جدتى لأبى فى نهاية تلك الاجازة ، فلم أحس بأى ألم لموتها ، وأدهشنى أن ترك أخى الطبيب عمله وجاء من آخر الصعيد للاشتراك فى تشييع الجنازة ، غير أن مجيئه — مهما أدهشنى — أتاح لى فرصة الحديث اليه مرة أخرى .

فان لى عددا من الاخوة غير الاشقاء لا يقيمون معنا ، ولا أحس تجاههم بأية عاطفة ، وشقيقا آخر انقطع عن الدراسة ليفرغ لتجارة أبينا فلم يعد يختلف عن بقية انتجار فى شىء من أخلاقهم الفثة وتصرفاتهم الجامدة ، وأصبح صورة طبق الاصل من أبينا ، بكل مافى كلمة «أبينا» من جفاف وتفاهة . لذلك فقد ظلّ أخى الطبيب الشخص الوحيد الذى يمكننى الحديث اليه فى صراحة عن كل مافى رأسى من أفكار .

* * *

خرجنا معا فى ساعة متأخرة من الليل ، بعد انتهاء الحفل التقليدى لوداع المرحومة ، فسرنا جنبا الى جنب فى صمت ، واجتزنا بضع حارات سوداء ضيقة حتى انتهينا الى الزراعية ، فتابعنا سيرنا فى خطوات وئيدة متساوية .

كان الظلام يلف الزراعات باحكام . وكان الجو خانقا لا تلطفه نسمة هواء ، والضفادع ترسل موسيقاها الغليظة بلا توقف ، ورائحة الغبار الراكد تنفذ الى خياشيمى مختلطة برائحة الزرع ، بعفونة فضلات البهائم ، فتتفاعل فى رأسى الملتهب ، وتزيد من توتر أعصابى ..

وعوى ذئب بعيد ، وجاوبه نباح كلاب فى أماكن متفرقة فى جوف

الظلام .. واخرج اخى علبة صغيرة كان لها لمعان خافت ، وأشعل سيجارة ، وكانت أول سيجارة أراه يدخنها ، فتأملت وجهه على ضوء عود ثقابه الذي اشعله ، ثم قلت :

ـ من العجيب اننا برغم كل شيء .. مازلنا نحرص على تقاليد غبية لا تصلح لنا .. تقاليد وضعها ناس جهلة ..

فتريث قليلا ثم سألنى عما أعنيه ، فقلت :

ـ امرأة فى الثمانين تموت .. وقد ماتت جاموسة حلوب للحاج ابراهيم أبو شامة منذ أيام .. فما معنى كل هذا ؟ ..

ـ لا ادرى عما تتكلم ؟ ..

ـ اتكلم عن هذه الزيطة .. وهذه المصاريف .. وهذه الضجة التى لا مبرر لها ..

فأرسل من فمه شريطا طويلا من الدخان الابيض ، ولم يتكلم ، وتمنيت لو رأيت تعبير وجهه فى تلك اللحظة .. وقلت :

ـ ثم انى لم ارك تدخن أمام الناس .. فلماذا ؟ ..

وأحسست أن سؤالى اربكه ، غير انه جره الى الحديث ، فقال :

ـ لم أتعود ان ادخن امام ابى .

ـ هذا هو ما أعنيه بالضبط .. فماذا لو رآك تدخن ؟ .. انه هو نفسه يدخن .. والناس كلها تدخن .. ثم ان رجلا فى مركزك وثقافتك لا يصح أن يقيم وزنا لمثل هذه التقاليد التافهة .. وأنا لا أدخن السجاير الآن ولكن عندما أدخن .. فلن أفعل ذلك خفية .

ـ وماذا ستكسب عندئذ ؟ ..

فلم أجد الاجابة على الفور ، غير انى قلت بعد قليل :

ـ لايهم أن أكسب شيئا .. المهم المبدأ ..

فقال وهو يمسك بذراعى :

ـ لاتظن أن أفكارك هذه جديدة على .. ولكنى اقتنعت بفكرة واحدة فى النهاية .. وهى أنه ليس من دواعى البطولة أن أعترض النهر .. فلن أكون سوى ضحية .. فقلت :

ـ أى بطولة .. وأى نهر .. ثم ضحية ماذا ؟ .. أغضب أبيك ؟ .. وما أهميته ؟ ..

وسكت برهة ، ثم اضفت :

ـ وعلى أية حال ، فلكى أكون ضحيــة نظامى الخاص ، أكرم لى من أن أكون ضحية تقاليد تافهة .. وضعها ناس جهلة ..

وحدثته فى تلك الليلة عن « احسان » ، و « روز » . ولم أخف عنه شيئا فكان ينصت الى فى هدوء ، حتى اذا مااقتربنا من البيت ، قال لى :

ـ ان احسان امرأة غبية .. أو على حد تعبيرك .. امرأة تافهة .. أما عن « روز » فانى انصحك أن تبتعد عنها .. وتذكر ان لك اختا بكرا فى سنها .

فقلت وانا اشيح بيدى :

ـ ان مايدهشنى انك تستعمل نفس العملة التى يتداولها هؤلاء الناس الجهلاء ..

***

وفى صباح اليوم التالى ، عمدت الى شراء «علبة سجاير» اشعلت ثلاثا منها فى ســاعة واحــدة فسببت لى دوارا . وكنت فى حجرتى ، ادخن احداها عندما شعرت باقتراب أبى ، فأقسمت الا اخفيها ، ولكنه مر بى فلم يلحظ شيئا غير عادى ، اذ كانت السيجارة قد انسحقت بين أصابعى .. فأبى رجل كريه .. تراه فلا يخامرك الشك فى انه لايصلح الا جلادا ، بل أقسى مافى الدنيا من جلادين ، وبرغم ذلك فاننى لم أكف عن تدخين السجاير حتى اليوم .

***

كانت روز تغرق فى الضحك عندما تسمعنى أتكلم عن أبى . وكانت كثيرا ماتقول :

« كم هو لطيف ومسل .. أن يكون للانسان أب .. »

وقالت لى مرة ، انه لو كان لها أب مثل أبى لعرفت كيف تنصب له « المقالب » حتى تجعله يضحك من نفسه .. ثم سألتنى : « هل كل الآباء مثل أبيك ؟ .. »

ثم أضافت فى مرارة قبل أن اجيب :

« كم كنت أتمنى أن يكون لى أب .. حتى ولو كان مثل أبيك »

وبعد عودتى من أجازتى تلك ، تكلمت كثيرا عنه ، حتى لاحظت هى ذلك وعلقت عليه . وحدثتها ذات ليلة ــ طويلا عنه وعن تمســكه

اللاواعى بالدين ، وكيف انه يحــدث فى البيت ضجة كل فجر ليلحق بموعد الصلاة فى الجامع ، مهما كانت الظروف الجوية التى تنتظره فى الطريق ، وقلت :

ــ لقد كان يدهشنى تعلق أبى بهذه الامور .. وكان يدهشــنى خاصة انه لايحقق ربحا من وراء الجهد الذى يبذله .. ولكنى أصبحت على يقين من أن غباءه له مايبرره .. فلا بد انه يتوقع أن تنتظره ثروة هائلة فى الجنة .

وضحكت روز من قلبها ، فاذا ماسكتت أضفت :

ــ والامر الذى لاريب فيه هو ان ابى رجل مجنون .

فهتفت :

ــ صحيح ؟ ..

فقلت مفكرا :

ــ ان من الجنون أن يؤمن الانسان بشىء لايراه .. ولكن بماذا نؤمن اذن ؟ .. لا بل السؤال هو .. هل لابد من الايمان بشىء ؟ .. هذا هو السؤال ..

ولم يبد على روز أنها فهمت حرفا واحدا مما قلت : فرحت أذرع الغرفة وهى تلاحقنى بنظراتها البلهاء ، ثم توقفت وسألتها :

ــ أأنت مسلمة أم مسيحية يا روز ؟ ..

ففكرت ، ثم هزت كتفيها ومطت شفتيها وقالت :

ــ لا أدرى !

ــ كيف لاتدرين ؟ ..

فعادت تفكر من جديد ، ثم قالت :

ــ اذكر أنى عندما كنت فى الملجأ، كنا نصلى فى كنيســة صــغيرة ونوقد الشموع أمام صورة كبيرة العذراء ، فلا بد أنى كنت مسيحية.. « مش كدة » ؟.. أما الآن .. فأنا لا أدرى ..

ــ وهل يختلف الدين باختلاف الزمان والمكان ؟ ..

ــ لو كنت أعرف أبى لعرفت على أى دين أنا .

وتطلعت الى وجهى فى حذر ، وكأنها تتوقع أن انعتها بالغبـــاء والبلاهة كما أفعل فى أحيان كثيرة ، غير أنى لم أفعل ، وسألتها :

ـ والعجوز .. هل هى مسلمة أو مسيحية ؟..

ـ لا أعلم .. فأنا لم أسمعها تتكلم فى أمور الدين .. وكنت أراها تهتم بكل الأعياد أيا كان لونها .

ثم أطلقت ضحكة صغيرة ، وقالت :

ـ ان دينها الرجال .

وعادت تضحك .. فقلت :

ـ انك أحسن حالا منى .. فأنت لاتؤمنين بشىء .. وهذا أيسر بكثير من أن نحاول أن ننتزع من نفوسنا شيئا دربنا على أن نؤمن به .

* * *

لم أكن من قبل أحدثها فى أمور الدين ، فكان حديثى فيها يسبب لها ارتياحا كان يبدو لى غامضا متناقضا مع طبيعتها البعيدة عن الدين . وقالت لى مرة :

ـ لقد تغيرت .. تغيرت كثيرا عن ذى قبل ..

ـ الى أحسن او الى أسوأ ؟ ..

ـ لا أدرى .. ولكنك أصبحت تخيفنى ..

ـ فلا بد أنى تغيرت الى أحسن ..

لا ، لم يدر هذا الحديث بينى وبينها بمناسبة الكلام فى أمور الدين ، بل انى لأذكر أنه كان بمناسبة ماطلبته منها من أن تخلع ثيابها لأرسمها عارية .. فقد سمعت من بعض الزملاء بالكلية ان « اسماعيل » وهو زميل بائس لنا ، يرسم صورا عارية يبيعها لتاجر صور بالقرب من باب اللوق ، يدعى « ارتريان » ، فقررت أن أكسب شيئا من فنى حتى أحس بقيمة ما لا نتعلمه .

وقد أدهشنى رفض « روز » للفكرة ، وقد بكت .. ورجتنى فى كلمات مذهولة منقطعة ، ألا أصر ، فازددت اصرارا .. وقلت لها :

ـ اننى لا أفهم لرفضك معنى .. فهل يمكنك أن تذكرى لى سببا واحدا لهذا البكاء ..

فقالت وهى تمسح دموعها بذيل قميصها :

ـ لا أدرى ..

ـ ألا تدرين شيئا على الاطلاق ؟ ..

ـ .. اننى أخاف البرد ..

فقلت وأنا أترك الحجرة :

ـ ان هناك موديلات متخصصات لايخيفهن البرد ، فسأبحث عن واحدة ..

وذهبت الى المطبخ ، فأعددت كوبا من الشاى ، ولما عدت به الى الحجرة ، رأيتها مكومة على الكنبة ، منكمشة فى نفسها ..

ولم أجد بعد هذه المرة حماسا لأن أرسمها عارية ، بل لم أفكر فى ذلك قط .. وقد حصلت من الخواجة أرتريان على ثلاثة جنيهات ثمنا للوحتى تلك ، فاشتريت لها « قلم روج » ، ولم تكن قد استعملت « الروج » من قبل ، فسبب لها فرحة كبيرة ، وصارت تستعمله لى خاصة ، وبرغم انها لم تكن تجيد استعماله ، الا أنه كان يضفى عليها طعما لذيذا .. فيه غرابة ..

***

سبق أن قلت لك ، ان علاقتنا لم تعد سرا على العجوز ، واضيف الآن أنه كان يخيل لى أحيانا ، انها كانت تود ـ من أعماقها ـ لو قمنا ـ أنا وروز ـ بتمثيل بعض المشاهد الغرامية أمامها .

وقد سألتنى مرة ، عما اذا كنت .. « أجد طعما لهذه البنت .. ثم راحت تروى أساطير عن نفسها عندما كانت فى سنها .

والواقع أن اطلاع العجوز على أمر تلك العلاقة أحدث هزة زلزالية فى العلاقات بين ثلاثتنا . فلقد صارت العجوز أكثر تسلطا على «روز» وصار صوتها يدوى فى البيت فى سيادة خالصة ، كما صارت « روز » أكثر رضوخا لها ، وتخاذل صوتها أمامها ، وان كانت تحاول ـ بين حين وآخر ـ أن تسترد شيئا من تفوقها عليها ، وأن تعود الى عنادها ، والكيد لها .

أما عنى ، فانى لم أتراجع عما اعتدته من مشاكستها والسخرية منها ومن ماضيها «ومرحومها» ، وان كنت قد بدأت أستجيب لبعض رغبات تافهة لها ، كشراء أصناف من الحلوى تحبها .. فكانت تتلقى ما أقدمه اليها فى رقتها وحنوها البالغين ، ولا تنسى فى كل مرة أن تنصحنى بغير مقدمات :

« بس .. كن حذرا ياجميل ياحبيبى .. لاتسبب لنا فضيحة » وكانت لا تفتأ تقول لروز كلما ضايقتها :

« والله عال .. المفعوصة عرفت الرجال .. وبقى لها عين .. »
أو تقول :

« اياك تعتقدين انك اكتسبت رجلا .. وماذا يكون هذا الملحوس

بجانب الله يرحمه .. أو بجانب .. » ثم تسكت فجأة وتتنهد وتهز رأسها فى أسى .

❊ ❊ ❊

وسئمت أنا اللعبة كلها ، ويبدو أن العجوز سئمتها آخر الامر ، فلقد ذهبت تعلن نبرمها وسخطها فى صورة بشعة كانت تثير اشمئزازى غير انى لم أكن أهتم بها ، ولم أكن أفكر حتى فى الرد عليها .

وعدت للملل والضيق .. والملل والضيق يتضاعفان فى الصيف ، مع الحر والعرق ، وبطء ساعات النهار ، ومع مضايقات الاساتذة والزملاء الفارغين ..

وشهر يونية بالذات لا أحمل له أى شعور طيب ، فأيامه لا تمر الا بصعوبة كما يمر راس الطفل من رحم امه .. ففيه ــ فضلا عن كل مضايقات الصيف ــ تلفظ السنة الدراسية أنفاسها . وأنت تعرف حتما كيف يلفظ الميت أنفاسه .. فى صعوبة كتلك التى يولد بها .. وفى صراع هو خلاصة حياته بأكملها .. هل رأيت فى حياتك انسانا يموت ؟ ..

اننى لم أر أمى وهى تموت ، فقد ماتت خلسة ، أقصد اننا وجدناها فى الصباح ميتة فى سريرها ، ولكننى رأيت جدتى وهى تموت ، فكانت تبدو فى لحظاتها الاخيرة كأنها تبغى أن تعيش مائة سنة أخرى .. وظللنا ساعة برمتها نرقبها على حين أن روحها تحاول التخلص منها .. وكنا ــ كلنا ــ ننتظر بصبر فارغ أن ينتهى الموقف حتى نسترد أنفاسنا ، فقد أجهدنا صراعها ، ورحت وأنا أتأمها اتساءل ، لماذا تتشبث امرأة مثلها بالحياة ؟ .. ولماذا يتشبث أى انسان بالحياة ؟ ..

❊ ❊ ❊

أحسست وأنا فى حجرتى فى احدى ليالى شهر يونية بأنى أختنق ، وكنت قد تخلصت من معظم ثيابى ، وبرغم ذلك لازمنى هذا الاحساس .. ولم تكن بى رغبة الى أن أرسم ، ولا لأن أقرأ .. ولا لأن أمشى .. ولا لأن أنام .. كان كل مافى كيانى قد توقف كسيارة استهلكت وقودها ، فلم أعد أقوى حتى على مجرد التفكير .

ودخلت روز حجرتى فى تلك الساعة ، فلم يكن يبدو عليها انها احسن منى حالا ، فكانت تسير متثاقلة كامرأة فى الستين ، وكأن كل روابط جسدها قد تفككت . وجلست الى جوارى فى همود .. ثم ابتسمت فى استرخاء وحذر ..

قلت لها :

ـ هل أحسست فى حياتك بالانقسام الى شيئين مختلفين ؟ ..
فحدقت فى وجهى ، ولم تبد عليها رغبة فى الكلام ، فاستطردت :

ـ اننى أحس كانى منفصل عن جسمى .. وانى سجين فيه ..
فابتسمت فى غباء ثم قالت :

ـ انك تقول أشياء غريبة .

وسكتت لحظة ، ثم قالت :

ـ اذا كنت تسأل عن احساسى فى هذه اللحظة .. فان كل ما أحسه هو رغبة فى أن ألقى بنفسى فى بحر بارد .. وأبقى فيه يوما كاملا ..

فقلت عابثا .

ـ لا أعتقد انك قذرة الى هذا الحد .

فضحكت ثم قالت :

ـ ليس هذا قصدى .

ـ أعرف قصدك .. وعلى أية حال .. فلابد أن هناك وسيلة للتمرد على هذا السجن غير القائه فى البحر .

وتمردنا على سجنينا فى تلك الليلة « المقرفة » وكان تمردى عن وعى كامل ، أما هى ، فلا أظنها كانت تعى ، فقد بكت كثيرا بعد ذلك ، وظلت مكومة فى سريرى ، دافنة وجهها بين ذراعيها ، تهتز معنشيجها. وانتابنى ضعف وخوف وزادت الامور تعقيدا فى رأسى ، فوقفت الى جانبها صامتا قلقا ، أتلفت حولى فى عجز . كنت أريد فى تلك الساعةان اسمع صوتا يتهمنى بأنى أخطأت حتى أجادله واقنعه بأنى لم اخطىء، فلقد خيل الى ساعتئذ انى لست مقتنعا تماما بأنى لم أخطىء ؟ ..

كنت أريد أن أصرح بأن مافعلت كان أمرا طبيعيا للغاية ، وانه لا أهمية لما حدث ، واننا نعيش فى عالم غير معقول « تحكمه نظرياتغير معقولة . والحقيقة انى أحسست فى تلك الساعة ، كما لم أحس من قبل ومن بعد ، بالذعر من كل ماتعودناه من تقاليد ، وما فرض علينا من أفكار ، وكرهت أبى كما لم أكرهه فى يوم من الايام ..

قلت فى صوت كان غريبا على سمعى ، وأنا اتحسس بيدى المرتجفة شعرها المبلل بالعرق :

ـ لماذا تبكين ياروز .. لماذا تبكين ؟ ..

فقالت من بين دموعها وزفراتها ، وقد كانت زفراتها هى الموسيقى التصويرية التى صاحبت الموقف !

ـ لا ادرى .. لا ادرى .

فجلست الى جوارها ، وقبلت كتفها ، وقلت فى اضطراب :

ـ يجب أن تكفى عن البكاء اذن ..

وتكلمت طويلا عن القيود السطحية التى يفرضها الناس على أنفسهم دون معنى ، وعن الاهمية التى يقيمونها لأشياء تافهة ، وحدثتها ـ مرة أخرى ـ عن أبى الذى تزوج باسم الدين خمس نساء كانت أمى تتمة ثلاث منهن .. فلما ماتت تزوج من غيرها قبل أن يكتمل الشهر الرابع لوفاتها .. همجية مشروعة وفساد تباركه المبادىء ، نفس المبادىء التى تقيم وزنا لشىء تافه لم يكن ليحول دون عمل أى شىء .. »

وكانت روز قد استردت أنفاسها ، وعاودها الهدوء ، ورفعت الى وجهها الغبى المبلل بالدموع ، فتابعت حديثى محاولا اقناعها والاقتناع معها ! ؟ ..

ـ ما الفرق بين أن يفعل الرجل مايفعل باسم الدين .. وبين أن يفعله دون أن يسميه .. هل هذه الورقة التى يحررها أحمق هى الفرق .. وما قيمة هذه الورقة اذا كانت ستفنى مع الزمن .. بل ويمكن أن تحترق فى لحظة .. هل تغير من طبيعة العلاقة ذاتها .. هل تعطيها جمالا أكثر .. هل .. هل تحبينى ياروز .. الا تحبينني ؟ ..

فهتفت وهى تلقى برأسها على صدرى وتتشبث بى ؟

ـ انى أحبك .. أنت تعرف انى أحبك ..

ـ لماذا تبكين اذن ؟..

ـ لا أعرف لماذا .. يا جميل .. لا أعرف ؟ .

* * *

انني لأسخر الآن من لحظات الرعب التى تملكتنى فى تلك الليلة ، بل لقد سخرت منها على الفور عندما اطلت اضواء النهار . فانه لا يثير الوهم والقلق مثلما يثيرهما الليل . وانا ممن يرتاحون الى الليل اكثر مما يرتاحون الى النهار ، فالظلمة بقدر ما تحجب الرؤية عن العين ، تتيح النفس أن تنطلق بلا حدود ، ولكنى برغم ذلك لا احب مواجهة المشكلات فى الليل ، فانى لا أستطيع عندئذ أن أغمض عينا حتى الصباح، يؤرقنى القلق ، ويحزننى الفزع ، وتمتزج أفكارى السوداء بالظلمة فتزداد سوادا ..

فعندما انزاحت ظلمة تلك الليلة ، وسقط الضوء على وجه روز

التى كانت لاتزال بجانبى ، الفيت كل شيء هادئا ، بل أكثر هدوءا مما كان فى أى يوم مضى .. كان وجهها هادئا ، ساذجا ، لا أثر فيه لجرح . وكان البيت هادئا يتثاءب فى استرخاء لا أثر فيه لضجة غير مألوفة . وفتحت النافذة فأطللت منها على الطريق ، فكانت الشــمس تلقى اشعتها الكسلانة على كل شيء فى هدوء ، والناس يتحركون فى كل اتجاه كما يحدث كل يوم فى هدوء ، فلم يكن العالم قد أصابه انفجار اذن لما حدث فى الليل .

تمطيت وتثاءبت ، ثم أيقظت روز ، ففتحت عينيها الجميلتين وابتسمت لى ، وجذبت رأسى اليها فقبلتنى ، وسألتنى فى صوت يدغدغه النوم .

ـ هل تحبنى .. يا جميل .. ؟

فقلت بعد تفكير .

ـ وهل تشكين فى ذلك .. ؟

ثم سألت نفسى عما اذا كنت أحبها حقيقة .. فأنا لم أجرب الحب قبلها ، فحياتى فى بلدتنا الريفية الحقيرة لم تكن لتتيح لى أن أجربه ، ووجه أبى العابس لم يكن ليشجع على أى حب من أى لون ، وفكرتى التى تكونت فى سنواتى الأربع الأخيرة عن الحب لا تعنى أكثر من أنه وهم .. مجرد وهم ككل الأوهام التى نعيش فيها .

* * *

هل اطلعت « روز » العجوز على سرنا الجديد ، أو استخلصته العجوز بمهارتها وخبرتها ؟ .. ، هذا هو مالم أعرفه .. ولا يهمنى أن أعرف .. كل ما أعرفه انها فهمت كل شيء وكأنها كانت معنا ، فان لديها قدرة غريبة على الاحساس بما يجرى فى بيتها وهى فى سريرها لا تبرحه ، ويكفى أن تسدد نظرة الى وجه « روز » أو الى يديها ، حتى تعرف كل شيء ... ولعلها عرفت سرنا من هذا الطريق .

ففى مساء ذلك اليوم أخبرتنى « روز » أن العجوز ارتابت فى الأمر ، وقالت لها « خبرينى ما الحكاية .. أن فى الأمر سرا ؟ ..

فارتبكت روز ، وأولتها ظهرها ولم تجب ، فصاحت العجوز ،

« والله ان فى الامر سرا .. لقد فعلها الملحوس .. لا بد انه فعلها ..

* * *

لو انى كنت قد استأذنت العجوز ، منذ باديء الأمر ، فى شيء من

الالحاح فانى لا أعتقد أنها كانت تعترض ، ولم يكن اقناعى لها ليستغرق شيئا من الوقت لو قدمت لها مزيدا من الحلوى التى تحبها .. أما لأن أفعل ما فعلت بغير رأيها فهذا هو ما أثارها ، وقلب كيانها ، فلم تتوقف عن الرغى والتهديد بابلاغ البوليس والنيابة ومحكمة الجنايات .. بل لقد كادت فى غضون ثورتها أن تطرد روز بالفعل من البيت ، كما طردت الكلب الاسود .. ولكنها تراجعت لحاجتها اليها ، واكتفت بتنغيصها كل الوقت ..

وانتهى العام الدراسى بعد ذلك بأسبوع ، وشرعت فى الاستعداد للسفر ، فطلبت منى العجوز أن أحزم أمتعتى ولا أعود الى البيت فستؤجر الحجرة لغيرى .

فقلت لها فى هدوء .

ــ هذا أحسن .. فمن الخير أن يبتعد الانسان عن وجهك القذر

***

وتركت هذه المرأة المقيتة فى شقتها «بالعجوزة» مقيدة الى سريرها لألتقى بها ثانية فى « العوامة » على قدميها . لم تكن هى نفسها بطبيعة الحال ، فالعالم لم يصل الى هذا الحد من الشذوذ بعد ، بل كانت امرأة أخرى هى صورة متحركة منها ، مترهلة الجسم ، متوحشة العينين واللسان ، لاتختلف عنها الا فى انها تتحرك ــ بتفاهتها ــ على قدميها وفى الأصباغ التى تغطى وجهها وأظافرها .

كانت هذه هى «الست لواحظ» صاحبة العوامة ، وهى تحتل الطابق الاسفل من العوامة حيث تقيم بمفردها ، وقد مات عنها زوجها «عبد المجيد بك» منذ سنوات فى مكة وهو يحج فهى لاتنفك تقول بعد أن تطلق تنهيدة عميقة ، « وياليته ماكان حج .. وماذا عاد علينا من حجه كان رجلا ولا كل الرجال » كان هو أيضا رجلا ولا كل الرجال مثل «محفوظ بك» .

وللست لواحظ ابن مهندس فى مشروعات الرى باحدى بلادالصعيد البعيدة ، ولا شك عندى انه اختار هذه البلد البعيدة فرارا من أمه ، فهى ــوالحق يقالــ امرأة لاتطاق ، لذلك فان دموعها لم تكن لتترك فى نفسى أثرا وهى تتكلم عن جحوده واهماله لها .. وعدم اهتمامه بزيارتها غير مرة كل سنة ، فى أجازته السنوية .

***

لم أعرف الطريق الى هذه العوامة بنفسى ، بل جرنى اليها «رفاعى» الذى كانت صلتى به قد توطدت فأصبح يلازمنى كل الساعات التى

أمضيها بالكلية . وكانت ملازمة رفاعى لى قد أتاحت لى ان ادرسه فى أناة ، فلم أجد فيه شيئا يستحق الدراسة ، ولعل هذا هو ماجعلنى أرتاح اليه برغم ماكنت أحمله لشخصه من ازدراء .

كان يستمع الى كل كلمة أقولها وعلى شفتيه ابتسامته التى لامعنى لها على حين تنطق كل تعبيرات وجهه بالانبهـــار ، فاذا ماتركتنى راح يردد أفكارى نفسها . وقد قال لى مرة : وددت لو أمسكت كشكولا لأســجل فيه كلامك .

وعندما رآنى أدخن السجاير ، دخنها هو أيضــا . ولازمنى فى «الأتيليه» فالتصق حامله بحاملى ، وتأثرت فرشاته بألوانى كمـــا تأثر بخطوطى ، ومع ذلك ظلت أعماله تحصل على تقدير يتردد بين الثمـــانين والمائة من المائة ، على حين بقيت أعمالى تتأرجح بين الخمسين والستين ، ولم يعد ذلك يهمنى فى شىء .

وعندما طلبت منى «العجوز» أن أحزم أمتعتى وأرحل لم أجـد من ألجأ اليه غير رفاعى وكان يقيم فى هذه العوامة مع اسماعيل ومصطفى ، فعرضت عليه أن يحتفظ بأشيائى لحين عودتى من الاجازة ، فاستقبل ذلك بترحاب صاخب وكأن أقصى ماكان يأمله هو أن يؤدى خدمة لى .

***

وعدت من الاجازة بعد بدء الدراسة بأيام ، فأقمت ليلتين فى نفس الفندق الحقير القريب من باب الحديد ،ولم يكن فى رأسى أدنى فــكرة عن حل لمشكلة السكن، فلما عرض على رفاعى أن أقيم مع «الشلة» فى العوامة ، لم أمانع اذ كنت قد أصبحت على استعداد لان أقيم فى أى مكان وأن أختلط بأى لون من الناس . . وباختصار كنت مستعدا لان أفعل أى شىء .

***

لم يكن اسماعيل يعجبنى من قبل لتكشيرة وجهه الثابتة ، ولعجرفته وغروره ، كما اننى لم يكن لدى فكرة واضحة عن مصطفى ، اذ لم أكن اخالطه فى الكلية بل لم أكن أحس بوجوده ، ومع ذلك فقد أصبحت ذات يوم لأجدنى أشارك ثلاثة نماذج بشرية تختلف عنى كل الاختلاف، فى هذا الطابق من هذه العوامة القذرة .

كنت قبل أن أدخل هذه العوامة أمر أمام ذلك الصف الطويل من الغوامات التى تربض على شاطىء النيل تجاه «العجوزة» فأتأملها من بعيد فأحس لها غموضا يستهوينى بانفصالها عن الارض ، وقتامة لونها .. والعتمة التى تلفها اذا ما أقبل الليل ، والســور الشجرى الممتد الذى

يحجبها عن الطريق ، والاشجار الضخمة العتيقة المتراصة أمامها وكأنها تخفرها . ولكن عندما دخلت هذه العوامة ، خيل الى أنى هتكت سرا محيرا فتمخض عن تفاهة لاتختلف عن تفاهة أى مكان آخر ، الا فى أن لها طعما خاصا يهيؤه لها الاسم الذى تحمله «عوامة» .

***

ولما لم يكن لدى سرير ،ولم يكن بالعوامة مكان لسرير آخر ، فقد شاركت رفاعى فى سريره الكبير الذى يحتل ثلاثة أرباع حجرة باكملها على حين ظل اسماعيل ومصطفى يشغلان بسريريهما الحجرة الاخرى التى لايفصلها عنا سوى حائط خشبى رقيق لم يكن ليمنعنا من متابعة الحديث حتى يغلبنا النوم .

وفى النهار تضمنا هذه الردهة الفسيحة التى حولت الى « أتيليه » دون أن تفقد وظيفتها الاصلية باعتبارها حجرة استقبال ، وحجرة طعام وان كانت لاتذكر فى أحاديثنا الا باعتبارها «اتيليه» ففى هذا « الاتيليه» كنا نأكل ونحن نتكلم ونرسم ونتكلم ، ونتأمل مياه النيل الجارية ونتكلم .. نتكلم كل الوقت ولا نتوقف عن الكلام أبدا .

فاسماعيل لا يمل الحديث عن موهبته الفنية التى تتعثر فى «مطبات» حاجنه المادية المستمرة المتزايدة ، واعلان سخطه على التوزيع السيىء للثروات ، ومحنة الفن كنتيجة طبيعية لهذا السوء فى التوزيع .

ومصطفى لايفتأ يعالج الامور بكلمات رقيقة لابد أنه أمضى عمره يتعلمها فى مدرسة نموذجية للبنات ، ويهمس بعبارات طيبة محفوظة محاولا الظهور كمعدن نظيف فى أرض يغطيها الطين، ورفاعى خلال ذلك يضحك لسبب ولغير سبب ، فاذا تكلم فليؤيد هذا أو ذاك ، أو ليقتحم الحديث بنكتة سخيفة لاتضحك سواه .

يرسل اسماعيل تنهيدة كفيلة بأن تحرق عوامة ، ثم يقذف بحاملة الألوان «البليتيه» على الترابيزة «القش» ثم يقول بصوته الخشن :

ــ كيف يمكننى أن أصنع شيئا صالحا .. وأنا جوعان ؟

ثم يلتفت الى مصطفى ويقول :

ــ اشتر لنا أكلا يامصطفى .. الا تحس بالجوع ؟

ويبتسم مصطفى فى رقة ويسأله :

ــ ماذا تريد أن تأكل ؟

ــ أى شىء .. المهم هو أن نكتم صرخات هذه الطاحونة .

ـ مارأيك لو أكلنا اليوم لحما ؟

ـ لابد أنك مجنون ٠٠ وعلى أية حال فلا مانع عندى مادمت لن أدفع شيئا ٠

ويسكت مصطفى وابتسامته على شفتيه كأنها مطبوعـــة ، فيضيف اسماعيل :

ـ بكم أنا مدين لك حتى الآن ٠٠ هل تجاوز الدين جنيها ؟ اطمئن فسأدفع لك ٠٠ فأنا فقير ولكنى شريف ٠

ويلتفت رفاعى الى ويقول :

ـ فكرة وجيهة .. فكرة اللحم هذه .. مارأيك ؟

***

مثل هذا الموقف يتكرر فى العوامة ـ تقريبا ـ كل يوم ، فاسماعيل يحس بالجوع دائما ، وهو يفلسف جوعه ويؤصل احساسه به ، ثم هو فى النهاية يستخلص منه فكرة عامة ، كأن يقول :

ـ انه لايمكن للجياع أن يقيموا حضارة ٠

أو يقول : لو كنت على شىء من الثراء ٠٠ أو على الاقل لو وجدت حاجتى لأحدثت ثورة فى الفن.. فثورات الجياع ثورات اجتماعية .. لا فنية .. وكثيرا ماكان يردد : صحيح ان الألم يخلق الفنان .. ولكن الجوع يدمره ٠

وفضلا عما كان يثيره اسماعيل فى نفسى من امتعاض عندما يتغزل فى «الطعام» مستعملا ضمير الغائب ، فانه لم يكن يعجبنى فى نواح أخرى كثيرة ٠ وأول مالم يكن يعجبنى فيه هو تقليده لفن «جوجان» زاعمـــا أن له مدرسة فنية جديدة لها أساس بعيد من الفن الفرعونى ، فكنت أقول رأيى فيه صراحة ، ومن الطبيعى أن يغضبه هذا الرأى ، فلم نتفق أبدا ، ولم نكن نلتقى الا على مائدة الطعام لنأكل فى نفس الطبق ٠

كنا مجتمعين نحن الأربعة « فى الاتيليه » كل منا منشغل بشىء عن الآخر ، فاسماعيل يضع لمساته الاخيرة فى لوحة عارية أعدها من الذاكرة المخواجة «ارتريان» ومصطفى منهمك فى أحد مشاريع الكلية ، على حين استلقى رفاعى على «الكنبة» القش ـ أهم ماقى (الاتيليه) من قطع الأثاث ـ وراح يقرأ فى كتاب أخذه من بين كتبى ، ولا ينفك يبدى اعجابه مع كل صفحة من صفحاته ٠

وكنت قد تسلمت فى صباح ذلك اليوم خطابا من «نوال» شكت لى فيه أباها اذ رفض خطبتها لشاب كانت تحبه، لانها تحبه.. ولم يكتف بذلك ، بل منعها عن المدرسة أيضا امعانا فى العقاب . فوقفت الى جوار نافذة العوامة ساكنا ، أستعيد فى ذهنى عبارات الخطاب الحزينة ، على حين كنت أتأمل الاضواء التى تتلألأ بعيدا على الساطىء الآخر للنيل « ناحية الزمالك » ، وعلى كوبرى الزمالك. وأنصت الى مياه النيل وهى تلطم جدران العوامة لطمات متوالية ملحة ، فتبعث همسات غامضة مكتومة تثير الأسى فى النفس ، وتذكرت صورة أبى بملامحها المنفرة ، وأمى بدموعها المتصلة ، كما تذكرت أشياء أخرى متعددة لارابطة بينها فأحسست بالمقت لكل شىء ؛ وطافت برأسى أفكار كئيبة أرهقتنى ، فالتفت الى «الشلة» وقلت كأنما أحادث نفسى :

ـ كم وددت لو كنت شاعرا ؟

فقال اسماعيل دون أن يحول وجهه عن «عاريته» :

ـ هل ترغب فى كتابة قصيدة تعبر فيها عن اشتهائك لروز . . لاتتعب نفسك .. فان لى أخا شاعرا.. دعه ينفرد بروز .. فسيكتب عنها بالتأكيد .

قلت : ليست روز ماأريد أن أكتب عنه .

واعتدل رفاعى وسألنى :

ـ ماذا ستكتب اذن ؟

ـ أريد أن أكتب قصيدة ألعن فيها كل شىء .. ألعن أبى فى مائة بيت .. ثم ألعن الحياة بأكملها فيما بقى من الأبيات .

وضحك رفاعى حتى أمسك بطنه ، وسار الى اسماعيل فضربه على كتفه وقال :

ـ هل سمعت ؟ .. انه يريد أن يلعن آباه فى قصيدة .. لماذا لايقوم أخوك بهذه المهمة ؟

وقال مصطفى فى هدوء :

ـ وما حاجتك لان تكون شاعرا .. وهل تفعل آنت طوال اليوم سوى أن تلعن أباك والحياة بأجمعها .

فقلت :

ـ لن تكون القصيدة كلها لعنات .. فسأتكلم خلال ذلك عن الاضواء التافهة التى تبدو هناك ، وعن تلك العمارات التى تطل علينا من الزمالك

فى كبرياء خلال النهار ، فاذا مااحتواها الظلام صارت اشباحا ٠٠ مجرد أشباح ، وسأتكلم عن هذه العوامة بما تضم فى أحنائها من ناس ، ولا تربطها بالارض سوى حبال لاتمنعها من الاهتزاز ٠٠ ثم عن هذا الوجود التافه الذى أوجد نفسه بغير مبرر ٠

فاذا باسماعيل يترك لوحته ويتقدم منى ملوحا بفرشاته قائلا :

ـ اسمع ماأقوله لك ٠٠ وافهمه جيدا ؟ اذا كان فى رأسك مايؤلمك فان فى بطنى مايؤلمنى ، وكذلك فى بيت أسرتى مايؤلمنى ٠٠ بل انى لأتألم مع كل انسان يتألم ومع ذلك فأنا لا أقول ان الوجود تافه ، وانه أوجد نفسه .

فقلت :

ـ من أوجده اذن ٠٠ أنت ٠٠٠

فعاد يلوح بفرشاته فى وجهى ويقول :

ـ ان الوجود غير مسئول عن الزبالة التى ملأت بها حياتك ٠٠ وعن نفاهتك الشخصية التى تتشدق بها طوال الوقت ٠٠ فأنت عندما تتكلم عن التفاهة انما تعبر عن شىء فى ذاته .

ولم تعجبنى لهجته ، كما لم تعجبنى فرشاته التى يلوح بهـــا ، فمددت يدى الى هذه الفرشاة وسحبتها منه فى هـدوء ، وتوقف هو عن كلامه مترقبا لما سأفعل أو ماسأقول، فكسرت الفرشاة الى نصفين متعادلين وأعدتهما اليه وقلت :

ـ انها تثيرنى ٠

وصر اسماعيل على أسنانه ، ولاح عليه الغضب ، غير أن مصطفى أسرع فجذبه من ذراعه قائلا :

ـ ماكان يصح لك أن تتدخل ٠٠ دعه يتكلم ٠٠ فهو انما يحـدث رفاعى ٠

❋ ❋ ❋

مثل هذه المناقشات كانت غالبا ماتدور فى العوامة ، فى احتداد وحماس وانما بغير هدف ولا نتيجة، والامر الذى كان يحيرنى ان اسماعيل لم يكن متدينا وبرغم ذلك لم يكن يتفق معى ٠

وأنا أقول انه لم يكن متدينا ، لانه لم يكن يعرف شيئا عن الدين سوى الالفاظ التى يرددها عامة النـــاس ، ولم يكن ليمتنع عن الانفراد بالنساء اللائى كنت أجلبهن الى العوامة بكثرة ، ولم يـــكن يمنعه عنهن

سوى افلاسه ، فكنت أدفع الثمن بدلا عنه على سبيل القرض حتى يبيع احدى لوحاته أو تصله ثمة نقود من البلد أو من أخيه الموظف .

أما مصطفى ، فقد كان متدينا بحق ، وكان كأنما وجد ليصلى .

وقد سألته مرة ، عما اذا كان أبوه قد فرض عليه الصلاة منذ يوم فطامه حتى أصبحت جزءا من طبيعته ، فقال : ان أباه لا يصلى فسبب لى ذلك دهشة كبيرة .

وعلى أية حال ، فاننى لم يدهشنى تمسك مصطفى بالدين والذوق ولا طريقته المصطنعة فى التسامى على من حوله بمبادئه السطحية التافهة وهمساته المخنثة عندما يتكلم عن الخير ، بقدر ما أدهشنى عزوفه عن النساء أيا كان لونهن . ولقد فسرت ذلك بأنه مريض ؛ وهذا بدوره فسر لى كل ما بقى من أخلاقه .

والامر الغريب ، ان مصطفى لم يكن يترك امرأة تدخل العوامة دون أن يجلس اليها بعض الوقت يسألها عن سر اندفاعها الى الطريق المشين الذى تسير فيه ، فكان يصدق حكايات هذا الصنف من النساء وينفعل بها . وانت لابد انك تعرف أن هذا الصنف من النساء لايروى غير أكاذيب حتى يثرن الشفقة ، أو ليضفين على أنفسهن سمات الضحايا .

وبرغم هذا كان مصطفى يقول كلما انصرفت احداهن .

انكم ترتكبون جريمتين .. أكثرهما سفالة ، استغلال حاجة انسان ، ومرة منح احداهن خمسين قرشا دون أن يقربها ، وكان ظاهر الانفعال يخشى أن ترفض منحته ؛ فلما سرت معها لأعبر بها « السقالة » الى الشاطىء راحت تضحك حتى كادت تسقط فى النيل ؛ ولو رآها وهى تسخر منه فلا أشك فى أن خيبة أمله كانت كفيلة بأن تقضى عليه

***

كانت «الشلة» مجتمعة عندما زارتنى «روز» فى العوامة لاول مرة ولم يكن أيهم يصدق ماحكيت عنها وعن حبها لى ، فبهتوا اذ رأوها ماثلة أمامهم ، تنقل قدميها فوق أرض العوامة مترددة وفى خجل ، تتطلع الى الوجوه الجامدة الكالحة التى تعلقت بها وكأنها تتأمل مجموعة فريدة من الطيور الجارحة .

وتقدم اليها اسماعيل بقميصه الملطخ بالالوان ، ومد اليها يدا قذرة قائلا :

ـ لم أكن أتصور أنك على هذا القدر من الجمال .

والتفت الى وأضاف :

ــ ولكنها صغيرة ياجميل •

وغير اتجاه وجهه الى مصطفى الذى كان يحتضن كوبا من الشـاى براحتيه على حين ركز كل نظراته على وجه «روز» وقال له :

ــ مارأيك يا مصطفى •• انها شيء مختلف عن الاخريات •• ثم عاد فالتفت الى مرة أخرى وقال باسما وهو يفرك راحتيه :

ــ لابد أنك ستقدم لها عشاء ياجميل •• انها فرصتنا •

أما رفاعي فكان منزويا في مقعد بعيد فى نهـاية «الاتيليه» يرقب الموقف بعينين لا تعبران عن شيء ، وعلى شفتيه ابتسامة غير مفهومة •• غير أنه مالبث أن خطا نحو «روز» بابتسامته نفسها ، وصافحها فى صمت وهو يتفرس فى وجهى باحثا عن اشارة ترشده الى مايجب عليه عمله •

وبعد أن استقرت «روز» على الكنبة القش وبدا عليها انها استراحت قال لها اسماعيل :

ــ أنت «روز» اذن •• ان اسمك جميـــــل •• يعنى «ورد» أليس كذاك ؟ ثم هز رأسه فى أسى مصطنع وأضاف :

ــ لكن للأسف •• «الورد» يذبل سريعا •

❋ ❋ ❋

وتتابعت زيارات روز للعوامة فى المواعيد التى أحددها لها ، فكان مصطفى يزداد رقة وطيبة فى حضورها ، على حين كان اسماعيل عـــلى النقيض لا يكف عن وخزها بكلماته المعقدة التى كانت تفزعها ، فلم تكن ترتاح اليه أبدا •

وكنت قد بدأت أضيق بتلك العلاقة التى لم يكن يمكننى التـكهن بنهايتها ، كما أن اللعبة كلها فقدت معناها بالنسبة لى ، وأصبحت افضل البحث عن طعم مختلف بين حين وحين على أن أظل معلقا بواحدة لاخبرة لديها •

وسواء لمست هى البرود الذى كنت ألقاها به ، أو لم تلمسه ، فان حبها لى لم يقل عن ذى قبل ، بل تزايد الى درجة تنذر بالخطر ، وكانت لاتفتأ تعبر عن أوهام وشكوك استولت عليها بأسئلة لاحصر لها ، وصار لها سؤال تقليدى توجهه الى بين وقت وآخر فى صيغ مختلفة ، هل هناك واحدة أخرى ؟

فكنت أجيبها :

ان الدنيا كما ترين مليئة بالنساء •• ولكن لاتوجد امرأة واحـــدة

تخصنى ، كان الخوف قد بدأ يسيطر على حياتها ، خوفها من أن أنصرف عنها ، وخوفها من السيارات التى تفتح لها أبوابها وهى فى طريقها الى العوامة ٠٠ وخوفها من صاحبة العوامة التى استقبلتها مرة بسباب قبيح فكنت فى كل مرة تشرح لى فيها مخاوفها أنصحها بالانقطاع عنى .ن شاءت فلم تكن تملك ماتجيبنى به سوى الدموع ٠

* * *

وذات ليلة فاجأتنى بأنها حملت منى ، فتملكتنى موجة عنيفة من الذعر ، كتلك التى تملكتنى فى الليلة « المقرفة » التى حدثتك عنها ، ولكن ذلك الذعر مالبث أن تضاءل أمام احساسى بالقرف ، ثم خطر بذهنى أنه سيكون غريبا حقا أن يكون لى طفل من امرأة لم أتزوجها ، ولعل ذلك ماجعلنى أحس بطرافة هذا الأمر ، فقررت السير فيه الى نهايته ٠

ــ ان تلك الشهور لم تذهب عبثا ٠٠ اهتمى بالطفل حتى نرى كيف يكون ، فذهلت ، وظلت لحظات تحملق فى وجهى بعينين منزعجتين ، ثم هزت رأسها فى حيرة ، وقالت :

ــ أنا لاأفهم ٠٠ هل تريد أن نحتفظ به ؟

ــ ولم لا ؟

ــ ولكن ٠٠ عزيزة قالت لى ٠٠ ترى ماذا سيقول الناس عنى ؟

ــ أى ناس ٠٠

ــ الناس ٠٠ وعم جابر البواب ٠٠

ــ وماذا يهمك مما يقولون ؟

وراقت لى هذه اللعبة ، فتابعتها فى حماس :

ــ اذا أبقيت عليه ٠٠ فسأحبك كثيرا ٠

وأطرقت روز طويلا ، ثم رفعت رأسها وقد تبدلت نظرتها وعادت ملامحها تتسم بالوداعة والاستسلام ، وهمست :

ــ أليس جميلا أن يكون لنا طفل ؟

ــ جميل جدا ٠٠

وكنا ساعتها وحدنا فى العوامة ، وكنا نجلس متلاصقين على الكنبة فنهضت وفتحت النافذة المطلة على النيل ، فاندفعت منه موجة هواء باردة اقشعر لها جسدى ، ولبثت مكانها بلا حراك تتأمل الظلمة التى تمزقها فجوات النور البعيدة وانعكاساتها المتراقصة على صفحة النيل المختلجة

ثم أدارت ظهرها للنافذة وقالت :

ـ عندما نتخرج سيكون عمر الطفل سنة •

ـ سنة الا شهور •

ـ ستأخذنا لنعيش معك •• (مش كده ؟) •

ـ ولم لا ؟

وأطرقت برهة ثم قالت فى صوت خفيض .

ـ قبل أن أرك •• كنت أحس بأنى وحيدة •• وانى فى حاجة الى انسان ما •• وقد وجدتك •• فأنت الانسان الوحيد الذى أحبه •• أما المشلولة •• وسكتت ولم تتم عبارتها ، وألقت نظرة على النيل ، ثم تابعت كلامها :

ـ اننى أعرف المشلولة •• فهى تكرهنى ، وستكره ابننا ، ولكنك ستكون قريبا منا وستزورنا •• ثم تأخذنا معك •• (مش كده ؟) •

وخيم الصمت مرة أخرى ، ثم قالت وقد أشرق وجهها فجأة :

ـ شىء جميل ان أصبح أما •• أن نصبح ثلاثة •

وصحبتها الطريق كله فى تلغ الليـــلة ، فكانت تسير بجانبى ملتصقة بى ، متعلقة بذراعى وكأنها تخشى أن تنتزعنى منها الريح •

وعندما عدت الى العوامة كانت الشلة قد اجتمعت ، فأعلنت اليهم فى هدوء اننى سأصبح أبا عن قريب ، ووقفت أتأمل وقع الخبر عليهم •

بهت الثلاثة ، وراحوا يتبادلون نظرات مشدوهة وكأنى قلت لهم : انى سألد طفلا •

وطأطأ مصطفى رأسه ثم انصرف الى لوحة كانت على حامله ، وراح يعبث فى ألوانها الجافة بأصابعه •• ثم قال موجها حديثه الى اسماعيل .

لقد قابلت فى حياتى القصيرة أنذالا عديدين •• ولكن لم أر انسانا يتسلى على تعاسة انسان فى هذه الوحشية •

فقلت :

ـ اذا كانت هناك قوة غير منظورة أوجدتنا •• فلا بد أنها أوجدتنا لتتسلى •• فماذا لو تسليت أنا بعض الوقت •

وصاح رفاعى :

ـ ان أعصابه من فولاذ •• أقسم انها من فولاذ •

أنا لاأفهم كيف يطيق الازواج زوجاتهم وهن حاملات ٠٠ فانني لم أكن أرى «روز» وهي حامل الا وأثارت في نفسي الاشمئزاز بكيانها الذى فقد انسجامه ، وبطنها المنتفخ وكأنه يخفى قنبلة ، ووجهها المتقع على الدوام ، وعينيها الذابلتين الكسيرتين ٠ فاذا كان هذا هو ماتثيره فى ساعات قلائل كانت تمضيها معى ، فما بالك لو أمضت معى كل الوقت. الحق أنى لو حدث يوما أن تزوجت ، ولو انى مصر على ألا أتزوج ، فانني لن أسمح لزوجتي بأن تحمل على الاطلاق ٠ ولماذا أسمح لها ؟ ان مايقوله الناس فى تبرير انجاب الاطفال من أن الولد يحمل اسم أبيه ، هو تبرير تافه وغير معقول ٠ فاذا كنت أنا نفسى لا قيمة لى ، فهل يكون لاسمي وحده قيمة من بعدى ؟ ثم أية قيمة تلك التى سأكسبها ببقاء اسمى من بعدى ٠ أتكون القيمة فى أعين الناس ٠٠ وما قيمة الناس ؟

لاأخفى عليك أننى بعد أن رأيت ماآلت اليه حالة روز من انتفاخ وتغير ممجوج ، فكرت فى التراجع عن فكرة الاحتفاظ بالجنين ، ولكنني لم أجد وسيلة للتراجع ، فضلا عن أن الثورة التى أحدثها هذا الجنين في العوامة جعلتنى ألفظ فكرة التراجع ولا أتفوه بها ٠

فلقد أحدث ظهور علامات الحمل على روز هزة فى العوامة بالفعل ٠ حتى أن رفاعى نفسه كان يشك فى أهمية الابقاء عليه ، وكان لاينفك يسألنى عن الحكمة من التمسك به ٠

كنت أسمع تعليقات اسماعيل الجافة التى يوجهها الى روز فأصر على الاحتفاظ بالجنين ، وكانت روز تعيد على مسمعى مواعظ مصطفى ونصيحته لها بالتخلص منه ومنى فازداد اصرارا عليه ٠ فكان يلذ لى أن أرى الاثنين يحترقان فى تفاهتهما ٠

وجاءتنى روز مرة باكية اذ التقت بها صاحبة العوامة فسبتها ٠٠ وقالت لها : «ياشيخه استحى ٠٠ أليس لك أهل» ٠٠ فنزلت اليها على الفور ولقنتها درسا لاأعتقد انها نسيته ٠

***

ولم أدهش اذ اكتشفت ذات يوم أن مصطفى يحب روز ، فقد لاحت دلائل هذا الحب فى المرات الاولى لترددها على العوامة ، ولكننى كنت أشك في مدلولها حتى تأكد لى آخر الأمر ، فلست ممن يخدعهم المظهر الملائكى الذى يلبسه مصطفى ، والا كنت ساذجا مثله ، والعطف وحده لا يمكن أن يدفعه الى كل هذا الاهتمام بها ، ان وجد مبرر للعطف ٠ ولكن الحب هو التفسير الوحيد لكل ماكان يأتيه ــ وهو الرجل الخيالى ــ من تصرفات تلقائية تقطع بتعلقه الساذج بها ٠

كان مجرد ظهور روز فى العوامة كفيل بأن يقلب حاله رأسا على

عقب ، فيشمله الاضطراب ، ويظل معلقا عينيه بوجهها ثم لايلبث أن يغادر «الاتيليه» الى حجرته حيث يغرق نفسه فى ظلمتها ، ويلقى بنفسه عـــلى سريره يتلوى ٠

وكنت اذا تكلمت عنها على مسمع منه ، تراه يرفع وجهه فى اهتمام وتلوح فى عينيه نظرة رومانسية تبدو فى محيط العوامة كضحكة فى مأتم لاطعم لها ٠

وكان لايفتأ يقول فى غيبتها : ان روز طفلة ٠٠ ليست الا طفـــلة مهما كبر سنها ٠٠ وهى لا تفهم ماذا يعنى أن تحمل امرأة بغير زواج ٠

أو يقول : ان لروز برغم كل شيء ، روحا كالملائكة ٠

فيرد عليه اسماعيل :

ـ كلام فارغ ٠٠ لو أنها حقيقة لاتعرف شناعة فعلتها ٠٠ فان بقاء الجنين ستة شهور ٠٠ وكلامنا ٠٠ كافيان لان ينبهاها الى ذلك ٠٠ ولا يمكن أن تتلوث الملائكة بهذه الصورة ٠

فكنت أسخر منهما وأقول :

ـ أرجو أن تصفالى كيف تكون الملائكة التى تتحدثان عنها٠٠ لاأعتقد أنها تشبهك يامصطفى ٠

ثم أضحك ويضحك رفاعى ٠

* * *

ولما لم يعد عندى أدنى شك فى أن مصطفى يحب روز ، راق لى أن أعذبه بوخزات صائبة لم تكن تخطىء أبدا ٠ فكنت أقبلها على مرأى منه بغير رغبة فى تقبيلها ٠ وفى بعض الاحيان كانت تثيرنى فكنت أقســو عليها ، فاذا تدخل بيننا ، وكان غالبا مايتدخل ، كنت أتمادى دون رغبة فى التمادى ٠

وكنت اذا رغبت فى أن أرفع سخريتى منه درجة ، قلت له فى برود: كم تدفع لأتخلى لك عنها ؟ فكان يتصرف كما تتصرف الملائكة ، فيبدو كمن أصابته لطمة ، ثم يلوى وجهه ممثلا دور المتعض ، وقد ترك العوامة مرة مصمما على ألا يعود اليها اثر مشادة نشبت بينى وبينه بسبب روز ٠٠ ولكنه مالبث أن عاد ولم أسمع ماقاله تبريرا لعودته تلك ، ولـــكن كان واضحا أن الحب هو الذى أعاده ، والا فكيف كان يرى روز ان لم يرها فى العوامة ٠

في نهاية تلك السنة أطلقت لحيتي • ولا أذكر الآن الاسباب التي دفعتني الى اطلاقها ، ولكنني أذكر أن الفكرة برزت في رأسي فجأة فنفذتها على الفور • كما أذكر انني بعد أن ظهرت هذه اللحية واتخذت شكلها الثابت أحسست أنني أبدو مختلفا عن الآخرين ، ولقد كنت دائما مختلفا عن الآخرين وكنت أحس بهذا في أعماقي ، وكان البعض يلاحظونه ، أما هل كنت خيرهم أم أسوأهم •• فهذا مالا يهمني طالما أني أسير في الطريق الذي رسمته لنفسي ، ولا أسير في ذيل القطيع •

كنت ألمح ابتسامات التهكم على شفاه زملائي التافهين ، وعلى الاخص الاناث منهم ـ فكنت أقابل ابتساماتهم بسخرية أشد ، وبرود كان يجعلهم يتشككون في أنفسهم •

وكان تعليق اسماعيل (على الموضوع) بعد أن ظل يتجاهله زمنا «لو وضعت صورتك وحدها ـ كما هي الآن ـ في لوحة •• لكانت أروع الصور التجريدية على الاطلاق •

ولم يعقب مصطفى ساعتها بشيء ، انما رمى وجهي بنظرته السقيمة ثم ابتسم ، ولا أدري ماذا دار برأسه في تلك اللحظة من أفكار ، ولكنني تضايقت منه أكثر مما تضايقت من تعليق اسماعيل ، ولاح لي وانا أتأمله قطع صغير في بيجامته الصيفية القديمة التي كان يلبسها طوال الشتاء المنصرم ، فمددت أصبعي الى هذا القطع وحولته الى قطع كبير •• فضحك رفاعي ، وأرسل اسماعيل حشرجات طويلة من فمه •

ولم تمسك روز نفسها عن الضحك عندما رأتني بلحيتي لأول مرة فلم يضايقني ذلك منها ،فلقد بدت على قدر كبير من الظرف وهي تضحك وبطنها المنتفخ يرتج معها ، وخصلات شعرها تتراقص على وجهها ، في حين تحاول أن تكتم ضحكاتها بأصابعها الخالية من الخواتم •

ولا أدري ماالذي جعلني ألاحظ في تلك اللحظة أن أصابعها خالية من الخواتم ، فأفكر في أنها تكون أجمل لو حملت خاتما ذا حجر أحمر كبير • وعلى أية حال ، فقد انتهت الساعة التي أمضتها معي في تلك الليلة بطردها من العوامة ، ولم أطردها بسبب ضحكها مني، فلقد راق لي ضحكها كما قلت لك ، ولكن شكلها كان يدفعني لان أطردها ، كما كان تشبثها الرخيص بي يثير في نفسي الاشمئزاز • •ويدفعني أيضا الى طردها •

***

فلما سافرت الى البلد في الاجازة السنوية الخامسة ، دهش الناس هناك للحيتي ، والناس في بلدتنا أغبياء الى أبعد حدود التصور ، وأبي أغباهم جميعا وان كان أذكاهم في جمع الثروة ، ولقد بعثت لحيتي في

نفسه سرورا بغيضا اعتقادا منه انها دليل على التدين٠٠ وهذا هو ماتوقعه رفاعى عندما قال لى ضاحكا :

ـ سيظن أبوك ٠٠ أنك أصبحت شيخا ٠

والواقع أنه لم يخفف من الآلام التى اعتدت أن أحسها خلال الاجازات التى كنت أمضيها فى البلد مرغما ، سوى اننى كنت أتوقع أن تكون تلك الاجازة آخر عهدى بالبلد وبأبى ، وبزوجته ، وبكل من حولهما من الناس فلقد كنت قد عزمت على ألا أعود اليهم أبدا اذا أنهيت دراستى ووجدت عملا ٠٠ فالحياة فى بلدتنا ترهقنى بصورة بشعة لاتتصورها ، وليس أشد ارهاقا للانسان من أن يجد نفسه يعيش بين ناس يمضون حياتهم فى اطعام الماشية والسير وراءها فى الحقل وفى الطريق ، ولا يفهمون من الحياة سوى هذه الامور ٠٠ ناس هم وما شيتهم سواء يحيون كما تحيا ، ثم يموتون كما تموت ولا يحققون خلال ذلك أكثر مما تحقق هى ٠

* * *

أمضيت تلك الاجازة كما أمضيت ماسبقها من اجازات ، أقرأ بغير رغبة ، وأنام بغير رغبة ، ثم أخرج فى المساء لأمشى وحدى بغير قصد محدد ٠٠

وقد تسلمت خلال تلك الفترة عددا لا أذكره من خطابات روز ، وهى خطابات متشابهة ، كان يكفى احداها ، ولم يشذ سوى خطاب واحد من أربع صفحات ذكرت فيه أنها وضعت طفلة جميلة ٠٠ وان كان حجمها صغيرا جدا ٠٠ كالقطة ، وانها تشبهنى الى حد بعيد ٠٠ ثم أضافت نكتة ساذجة اذ قالت : «ولكنها تختلف عنك فى أنها ليست لها لحية» ، ثم حاولت أن ترسم صورة وافية مؤثرة لما تحملته من ألم الوضع فجاءت صورتها مضحكة ، وراحت بعد ذلك تصور بيتا جميلا صغيرا يضمنا نحن الثلاثة ٠٠ بعيدا عن المشلولة التى تكره الطفلة ، وتسميها «الملعونة ٠٠ وبنت الملاعين» ، وانهت الخطاب بقولها : وانا فى انتظار حضورك حتى تسميها معا ٠

* * *

وانقضت تلك الاجازة بصورة أو بأخرى ، ولكنها لم تنقض الا وقد قلت لابى رأيى فيه : وفى مبادئه ، وواجهته بتفاهته ، فلم أجرؤ على طلب نفقات السفر منه فطلبتها من أخى (شريكه) ٠

وتهيأت للرحيل الى القاهرة قبل بدء الدراسة بأسبوع ، واهتمت زوجة أبى بأن تعد حقيبتى ولم تكن تهتم بشئونى قبل هذه الاجازة ، وسألتنى :

ـ متى سنراك ثانية ؟

قلت فى لهجة جافة :

ـ لن ترونى ٠

فارتجفت وقالت واجمة :

ـ هل تضايقت منا ؟

ـ وهل ارتحت اليكم أبدا ؟

ـ حتى أنا ٠٠

قلت وأنا أحمل حقيبتى :

ـ اننى لم أستثن أحدا ٠

ولحقت بى « نوال » عند الباب فقبلتها ، وأسرعت بمغادرة البيت قبل أن أصدم بمرأى أبى ٠

＊＊＊

كنت أول العائدين الى العوامة ، فكان يخيم عليها هـــدوء حقيقى كهدوء المقابر ، تسودها فوضى استقرت خلال ثلاثة شهور ميتة ، وكان التراب يغطى كل شيء ويكاد يحجب اللوحات التى تركناها قبل رحيلنا كما وجدت أكوابا جف فيها الشاى ، وأطباقا استحالت فيها بقايا الطعام الى مادة عفنة كريهة ٠

وقد هيأ وجودى وحدى فرصة للست لواحظ ، لم تكن لتتهيـــأ لها فى وجود الآخرين ، فقد كانت تحاول دائما أن تجرنى الى شقتها من العوامة فى الحاح غث ، وكان قصدها واضحا ، فى حين أن مجرد النظر اليها كان يثير فى الاشمئزاز ، فلم أكن أرضى النزول اليها كمــا كان يفعل الآخرون ليستمعوا الى الراديو ، أو ليستغلوا رغبتها الدائمة فى ان تسقينا الشاى ٠

صعدت الى يوم وصولى ، فبدأت حديثها كما اعتادت أن تبـــدأه باصدار التنبيهات ٠

ـ اسمع ياجميل ٠٠ اننى أعلم أن هذه السنة هى آخر سنة لـكم فى الكلية ٠٠ فمن أجل مستقبلـــكم على الاقل لابد من أن تغيروا من طريقتكم ٠

ـ ماذا تريدين بالضبط ٠

ـ البنات الداخلة ٠٠ والبنات الخارجة ٠٠ لا داعى لهن ٠٠ فلقد سببتم لى الضغط بأحوالكم طوال السنة الماضية ٠٠ ولكنى لست عـلى استعداد ٠

وكنت أقف أرقبها فى صمت ، وليس فى نيتى أن أسمع كلمة مما تقول ·· ولا أدرى ماالذى دفعنى الى أن أمد يدى الى ذراعها المكتنز وقد فعلت ذلك فى هدوء فتوقفت عن الكلام وتراجعت خطوة الى الوراء وهى تقول فى ليونة سمجة :

ــ الله ·· أستاذ جميل ··

فانفجر فى نفسى بركان من الاشمئزاز ·· وقلت لها وانا أصرفها :

ــ طيب ياست لواحظ ·· سأتفاهم مع الآخرين ·

ــ والنبى انت أحسنهم ·· اننى أعزك أكثر من ممدوح ابنى ·

ــ شكرا ياست ·· مع السلامة ·

ــ اننى وحدى كما تعلم فلماذا لا تأتى لتشرب معى فنجانا من الشاى وتسمع الراديو ؟

ــ فى مرة أخرى ·· مع السلامة ·

* * *

وتتابع أفراد الشلة ، فلم تمض أيام حتى عادت العوامة تحيا حياتها التى انقطعت ثلاثة شهور ، فجلجلت ضحكات رفاعى ، وزحفت همسات مصطفى وارتفع صوت اسماعيل الأجش يحكي تجربة حية مر بها خلال شهور الاجازة اذ عمل ملاحظا لعمال أحد المقاولين فى مدينتهم بأجر لايزال يحتفظ به فى جيبه ·

وكان اسماعيل يبدو منتعشا بحق ، سعيدا بكل شىء ، شبعان طوال الوقت ، وصار حديثه لايخرج عن مشروعه الكبير ، الذى سيتقدم به فى نهاية السنة للحصول على البكالوريوس ·· والذى سيكون موضوعه «عمال البناء» ، وهو لايفتأ يردد ·

ان الجهد الاسطورى الذى يقوم به هؤلاء الناس جدير بأن أسجله فى مشروع ، وكأن فان جوخ يتكلم ·

ثم يقول : ان الرضا الذى يلوح فى وجوههم وهم يرزحون تحت كتل الدبش وحمولات الاسمنت ·· كان يذهلنى ·· صراع جبار من أجل لقمة جافة وقطعة جبن يدور الرجل ويدور فوق السقالات ·· ويصعد أدوارا وأدوارا تحت حمله القاتل فى ثبات كالعملاق ·· ويغنى ·· المهم أنه يغنى ·

ثم يخرج منديله الجديد ، ولم يكن يستعمل المناديل من قبل فيمسح فمه ثم يتابع حماسه :

ـ انظر الى وجه الرجل منهم ٠ الى التعبير القاسى الذى يطل من عينيه الى الظلال التى تبرز تقاطيع وجهه الفرعونى النحاسى المغبر ٠ ٠ وعضلاته النافرة ٠٠ أنظر اليه وهو نائم كالميت ٠٠ ثم وهو ينهض بانتفاضة ليتابع الشقاء من جديد ٠٠ ويغنى ٠

سيعبر المشروع عن كل هذا ٠٠ وعن الزنبيل الذى يهيل منه الرمال فتغطى وجهه وظهره وتختلط بعرقه ٠٠ والمقاول بكرشه الكبير يصدر أوامره ويقبض الجنيهات ٠٠ وصاحب العمارة يتعجل المقاول حتى لايضيع عليه ايجار العمارة فى شهر ٠٠ والمقاول بدوره يتعجل العمال صارخا لاعنا ٠٠ والعمال برغم كل شىء يغنون ٠

ويسكت اسماعيل لحظة يتأمل فيها وجوهنا الصامتة ثم يستطرد :

ـ سيعبر المشروع عن هذا كله ٠٠ وستكون الخطوط بسيطة ٠ ٠ بسيطة ولكنها حية ٠٠ سأجعل لمساتى تعبر عن شقاء هؤلاء الناس بلا مغالاة ٠٠ ولماذا أغالى ٠٠ فحقيقتهم أقوى تعبير عن الشقاء ٠٠ وستكون الوجوه فرعونية ٠

ويبدو أن صوته الأجش لاينوى التوقف الا اذا وقعت معجزة ، ولا بد من أن أكون أنا صاحب هذه المعجزة ، فأقاطعه سائلا :

ـ مارأيك فى عشوة لحم ؟

ـ لحم ٠٠ ؟ أتكلم عن المشروع فيكلمنى عن اللحم ٠

ـ اذن فكلم مصطفى حتى ينتهى مامعك من فلوس ٠٠ تعال يارفاعى نتعشى ٠

ويخيم الصمت ثم يسأل اسماعيل مصطفى عن فكرة مشروعه ، فيطأطىء مصطفى رأسه مفكرا ، ثم يرفع وجهه اليه ويقول فى صوت خجول :

ـ المعذبات ٠

***

وفى الكلية ظهرت الأهمية الوحيدة لبلوغنا السنة النهائية ، اذ أصبحنا فى القمة ، ولم يعد أمامنا غير شهور لنصبح فى الشارع ٠ ولا يهم مايحدث بعد شهور ، المهم هو أننا أصبحنا فى القمة ، وهذا من شأنه أن يكون له أثر فى نظرتنا الى طلاب الفصول الاخرى التى تلينا ، وفى نظرة هؤلاء الينا فبعد شهور تضع الكلية خاتمها على ورقة تشهد فيها أننا أصبحنا فنانين ، وهذه الورقة هى أمل كل واحد من أسراب النمل

التى تغص بها أقسام الكلية ، ومن ثم فيمكنك أن تتصور مكانتنا ، فى نظر الطلاب بالسنة الاعدادية « المستجدين » بوجه خاص •

الكلية مضطربة أشد الاضطراب •• ضحكات الطلاب القدامى تتردد فى عجرفة واعتـداد ، والطلاب الجـدد يتسللون خلال ممرات الـكلية فى حياء •• والسعاة مرتبكون لغير سبب ، وعم حسين كبيرهم، يصدر الاوامر اليهم والى الطلاب الجدد ، وباختصار كل الامور تجرى كما تجرى فى بداية كل عام دراسى فيما عدا أننا أصبحنا فى القمة •

وكنت أتمشى فى فناء الكلية على مهل ، وفى فمى سيجارة أتصفح الوجوه ، وأتسلى بفرز الوجوه الجديدة من بينها ، وكان من السهل التعرف عليها بالابتسامة المترددة التى تندفع اليها بمجرد أن ترانى •• وسمعت أحدهم يسأل آخر :

ــ متى نبدأ فى رسم العريان ؟
فيرد الآخر :

ــ بلغنى انهم لايدرسون العريان للاعدادى •

ــ لا ياشيخ !••

وأمام البوفيه ، كانت تقف طالبتان جديدتان ، احداهما شـــقراء والاخرى سمراء ، والاثنتان متأنقتان وكأنهما فى مرقص •

ولا أستطيع أن أجزم بمن كانت منهما أجمل من الاخرى ، ولـكن الذى لاشك فيه أن الاثنتين كانتا أجمل من رأيت فى الكلية خلال عهدى الطويل بها ، والحق أن السمراء هى التى جذبتنى أولا ، فقـد كان فى ملامحها شيء من الاعتداد والكبرياء أثار كبريائى •

ووقفت وراءهما مباشرة معتمدا على شباك البوفيه ، وطلبت كوبا من الشاى رحت أرشفه فى غير وعى وأنا أرقبهما فى استغراق •

قالت السمراء :

ــ عندما كنت فى الثانوى ، كنت أحسن واحدة فى الرســم •• كنت أحصل على تسعة من عشرة •

ــ ياه •

ــ لهذا فقد كانت كلية الفنون هى أول مافكرت فيه من الكليات •

ــ أما أنا فقد كان مجموعى فى التوجيهية ضعيفا •• فلم أجد أمامى غير هذه الكلية •

ــ وكيف نجحت فى امتحان القبول ؟•

فقالت الشقراء فى رقة متناهية :

ـ كما ينجح الناس ٠

ثم رفعت يدها الأنيقة فدفعت خصلة نافرة من شعرها الحريرى، فقالت السمراء :

ـ هل انت متزوجة ؟

ـ أو لم تلاحظى الدبلة الا الآن ؟

واتجهت مشاعرى نحو الشقراء دفعة واحدة ٠

***

أشعلت سيجارة ، ودسست يدى فى جيبى البنطلون ، ثم درت حولهما حتى واجهتهما ، فوقفت على بعد خطوة منهما صامتا ٠٠ فتعلقت اعينهم المشدوهة بى ثم أطلقت الشقراء ضحكة رقيقة، والتصقت بالسمراء التى عرفت كيف تضم شفتيها فى أحكام ٠ وحين عاد الهدوء اليهما قلت :

ـ ان من تقاليد هذه الكلية ألا يضحك الطلبة الجدد أمام طلبة البكالوريوس ٠

فعادت الشقراء تضحك ، ثم سألتنى وهى تضيق عينيها :

ـ وحضرتك فى البكالوريوس ؟

ـ هل تشكين فى ذلك ؟

فقالت السمراء وهى تعتمد بيدها على كتف زميلتها :

ـ وكيف لنا أن نعلم ؟

ـ ان الجميع يعلمون ذلك ٠

ـ كان لابد أن ينبهنا أحدهم ٠

وضحكت الاثنتان ، ثم تشاغلت الشقراء بحقيبتها بأن فتحتها ثم أغلقتها ، ونفثت دخان سيجارتى ثم قلت محدثا الشقراء :

ـ ومن تقاليد الكلية أيضا ٠٠ ألا تدخلها طالبة بحذاء كعبه «ثلاثة سنتى» ٠

فألقت كل منهما نظرة الى حذائها ثم سألت الشقراء :

ـ هل نأتى بأحذية بغير كعب ؟

ـ لا ، بل بكعب سبعة سنتى ٠٠ على الاقل ٠

وارتفع ضحك الاثنتين من جديد ٠

وبرز مصطفى فجأة وكأنما انشقت عنه الارض ، وحيا الفتاتين بابتسامة نسائية لائقة ، ثم التفت الى وقال فى لهجة جادة :

ـ ان شخصا أمام الكلية ينتظرك ٠

فحدقت فيه برهة ،ثم نفثت الدخان فى وجهه القلق وقلت :

ـ من هو ؟

فاستأذن الفتاتين بابتسامته المزيفة ، وجذبنى من ذراعى بعيدا ثم سألنى فى انفعال :

ـ ألا تعلم أن روز وضعت طفلة ٠

ـ هى التى تنتظر اذن ؟

ـ تصور ٠٠ انها لم تسم الطفلة حتى الآن ٠٠ برغم أنها ولدتها منذ شهرين ، فقذفت ببقية السيجارة الى الارض ودهستها ثم قلت :

ـ وما الذى أتى بها الى هنا ؟

ـ هل قلت لها قبل الاجازة اننا سنترك العوامة ٠

ـ وهل من المتعين على أن أتحمل تفاهتها الى الأبد ؟

ـ ولكن هذا كذب ٠٠ خداع ٠٠ انك تخدعها ٠٠ وقد كنت تخدعها دائما ٠

ـ اسمع يامصطفى ٠٠ هل يمكن أن تؤدى خدمة لى ٠٠ قل لها انك لم تعثر على ٠٠ اذهب بها الى السينما ٠٠ أنت تحبها ٠٠ فخذها لك ان شئت ؟

فرسم على وجهه تعبيرا شاذا يوحى بالامتعاض ، وخيل الى أنه يقاوم رغبة فى أن يصرخ فى وجهى ، ورغبة أخرى فى أن يبكى ، ثم رغبة ثالثة فى أن يضربنى لو استطاع ٠٠ فقد كانت ملامحه تتغير فى سرعة كبيرة ٠

وأشعلت سيجارة أخرى ، فقد أصبحت مدمنا ، ثم التفت الى الفتاتين اللتين كانتا تتهامسان وتبتسمان ، فانحنيت لهما ، ثم قلت لمصطفى وانا أبتعد ٠

ـ سأذهب اليها ٠٠ فامسح دموعك ٠

***

كانت روز تقف كالبلهاء أمام الكلية تعد طوابقها ونوافذها ، واستقبلتنى بموجات متلاحقة من الانفعالات ، كطفل تائه التقى بأمه ، وقد بدت لعينى يومها طفلة غبية بالفعل ، وبعد أن استردت أنفاسها ، لاح لى أن لديها سيلا من الحكايات تبغى روايتها ، ففكرت فى أن أسد عليها الطريق ، ولكنى تريثت فلم تقل سوى عبارات متقطعة أشبه بالأنين ٠٠

لقد كدت أجن لغيابك ، كنت أنادى باسمك وأنا أتألم ، انها جميلة ٠٠ هل تحبها ٠٠ متى تحب أن تراها ؟

كان جسدها قد استرد مظهره الطبيعي وتضخم صدرها بشكل واضح وكانت تحوط عينيها ظلال داكنة لم أكن ألحظها من قبل ، وكان وجهها شاحبا حزينا برغم فرحتها التي حاولت التعبير عنها ٠ كان كل شيء فيها قد تغير الا شعرها ٠٠ ولكنها برغم كل ذلك صارت أكثر جاذبية مما كانت فيما مضى ٠ قلت لها مقاطعا :

ـ سأنتظرك الليلة فى العوامة ٠

ـ ألم تتركوها ؟

ـ لا ٠٠ فلا تتأخرى ٠

ـ ولكنى أخشى صاحبة العوامة ٠

ـ ولا يهمك ٠

ـ هل آتى بالطفلة معى ؟

ـ لا ٠٠ دعيها ليوم آخر ٠

وبعد أن استدرت لأعود الى الكلية لاحقنى صوتها ،

ـ ولكنك لم تقترح اسما لها ؟

ـ آه ٠٠ أى حاجة ٠٠ سمها «نجوى» ٠

***

وجاءت فى المساء الى العوامة ، فأثارت ضحكي بمظهر السيدات الذى حاولت أن تظهر فيه ٠٠ فقد كانت تلبس فستانا ورديا يلف جسدها فى احكام ، وتلبس حذاء رماديا ، وتخلق فى ذراعها حقيبة سوداء كالحة وقد رسمت شفتيها «بقلم الروج» فى غير اتقان ، فبدت بألوانها المتناقضة كمحترفات الحب الرخيصات ، وأربكها ضحكى ، فقذفت بحقيبتها على «الترابيزة القش» ثم قذفت بنفسها على الكنبة وراحت تبكى فى مرارة ٠

كان اسماعيل ومصطفى هناك ، وقد دفع الموقف الى رأسيهما أفكارا استطعت أن أتبينها من تعبيرات وجهيهما ، غير أن أحدا لم يتكلم ، ولو فعلا لبصقت عليهما ، فلقد سئمت تمثيلهما لدور الانسانية الذى لا يلائمهما ٠

وسحب اسماعيل مصطفى من يده وغادرا العوامة ٠

وقلت لها وانا أعبث بشعرها :

ـ ماذا جرى ياروز ٠٠ هل جننت ؟

فقالت وهى تمسح أنفها بمنديل رخيص كان معها ٠

ـ لقد كنت أعتقد أن هذا سيرضيك ٠

ولم تمض دقائق حتى عادت ابتسامتها الى شفتيها ، وراحت تقبلني في جنون ، ودفنت رأسها فى صدرى ، وهدأت ، ولم أعد أسمع منها غير أنفاسها التى تتردد منتظمة متلاحقة كدقات القلب ٠

أمضت معى فى تلك الليلة ثلاث ساعات تكلمت كثيرا خلالها على حين كنت شارد الذهن لاأفكر فى شيء محدد ٠

وتمطيت وأمسكت بفرشاتى لأتم لوحة كنت منشغلا بها قبل حضورها ، فخطت الى جانبى ، والتصقت بى وراحت تحدق فى اللوحة ثم همست :

ـ ماذاترسم ؟

ـ منظر طبيعى ٠

ـ وما هذا ؟ ٠٠ كرسى ٠

ـ انها العمارة التى هناك ٠

وأشرت بأصبعى من خلال النافذة الى الشاطيء الآخر للنيل ٠٠ فنظرت الى حيث أشرت ثم هزت كتفيها ومطت شفتيها وعادت تسأل :

ـ هل تدرسون الاشياء ٠٠ هكذا ٠٠ فى الكلية ٠٠؟

ـ انهم لايفهمون هذا فى الكلية ٠

ـ لانه من الصعب فهمه فعلا ٠

ـ ومن قال ان الاغبياء يفهمون ؟

فتركتنى وذهبت تنظم محتويات « الأتيليه » وترتب حجرة النوم وتنقل الاطباق والاكواب الى المطبخ ثم توقفت عن العمل فجأة ، ودنت منى وقالت متلعثمة :

ـ لقد طلبته منى المشلولة ٠٠ بالامس ٠٠ طلبا غريبا ٠

ـ وما هو ؟

ـ طلبت أن ٠٠٠ هل ستغضب ؟

ـ لا ٠٠

فصرخت وهى تضرب الارض الخشبية بقدمها فى عصبية :

ـ كيف لا تغضب ؟ اذن فأنت لا تحبنى ٠٠ ولا تحب نجوى ٠

ـ وما دخل هذا فى الموضوع ؟

ـ لقد طلبت منى أن ٠٠٠ أصبح صديقة لحسن افندى ٠

قلت وأنا أتابع عملى :

ـ ومن هو حسن افندى ؟

ـ الساكن الجديد ٠

ـ آه ٠٠ وماذا فعلت ؟

ـ بصقت عليهما ٠

ـ أحسن ٠

ـ قالت انها ستطردنى أنا ونجوى ٠

ـ لن تفعل ٠

ـ وماذا لو فعلت ؟

ـ انها لن تفعل ٠٠ فاتركينى لأنهى هذه اللوحة ٠

فسارت الى الكنبة واستقرت عليها ، وراحت تبكى من جديد ٠

فأثارنى بكاؤها ٠

واقتربت منها وصحت فى ضيق :

ـ انك تثيريننى بهذا البـــكاء ٠٠ ماذا جرى لك ٠٠ لقد أصبحت تبكين لأتفه الاسباب ٠

ـ أنت لاتحبنا ٠

ـ وماذا تريدين منى أن أفعل ؟ هل أقتلها ؟

ـ ان ماأريده هو أن تحبنا ٠

ـ طيب ٠٠ سأذهب اليها غدا ٠٠ وألقنها درسا ٠٠ فكفى بكاء ٠

***

وفى اليوم التالى ذهبت الى المشلولة فلعنتها ، وبصقت فى وجهها ثم تركتها تصرخ كالمجنونة ، وتقذف ورائى بالوسائد وكل ماتوصلت اليه يدها ٠٠ وكانت روز هناك فشدتنى الى حجرتها ٠٠ ورأيت الطفلة ، فلم تكن تختلف عن غيرها من الاطفال ٠ ٠وقالت لى روز :

ـ ألا تقبلها ؟

فقبلتها ٠٠٠ فسألتنى :

ـ هل أقيدها فى دفتر الصحة ؟

ـ قيديها ٠

ـ باسمك ؟

ـ لم لا ؟

فبدت عليها سعادة لا معنى لها ، وتعلقت برقبتى وقبلتنى ثم وجمت فجأة وسألتنى :

ـ لماذا اخترت اسم «نجوى» بالذات ؟

ـ لاداعى لهذا الاسم ‥ سمها «سهير» ٠

فبهتت وكان واضحا أنى هدمت بلمسة صغيرة تلالا من شكوكها بغير توقع منها ، ولكنها لم تلبث أن سألت :

ـ ولماذا سهير بالذات ؟

ـ انه اسم طالبة جديدة بالكلية ٠

ـ هل تعرفت بها ؟

ـ انها زميلة ‥ ومتزوجة ٠

ـ هل تعرفت بها ؟

فصحت وانا أخطو نحو الباب : ألا تكفين عن توجيه الأسئلة ‥ انك تثيرين أعصابى ؟

* * *

ـ هل تحبنا ؟ هل تحبنى ؟ ‥ هل تحب سهير ؟ متى تأخذنا معك؟ أسئلة صرت أسمعها مرات ومرات فى اليوم الواحد ، تقال همسا ، وتقال صراخا ، وتقال من بين الدموع ، فلم أعد أحتملها ، وكان لابد من أن أضع حدا لها ، فقلت :

ـ لا ‥ لا أحبك ‥ ولا أحبها ‥ فابعدا عنى ٠

قلت هذا مرة مدفوعا بغضبى ، ثم قلته بعد ذلك مرات مقررا الحقيقة بسيطة لا يهمنى اعلانها ‥ وبرغم ذلك لم تنقطع عن العوامة ، فـــكانت تأتى فى ذلة لتقول انها تعلم انى أحبها ، واننى كنت غاضبا عندما قلت انى لاأحبهما ، ثم تضيف فى كل مرة :

ـ لست فى حاجة الى أن تقول انك تحبنا ‥ يكفى أن تبقى معنا ٠ ولا تتخلى عنا ‥ ولكنها سرعان ما كانت تنسى فتعود الى أسئلتها الغبيــة التى تثيرنى ٠

كانت روز فى تلك الآونة تبدو وكأنها فقدت نصف عقلها التافه تبكى بغير داع ، وتعلن تشبثها فى غير مناسبة ، وتقسم بأنها ستقتل نفسها اذا تركتها دون أن يكون قد بدر منى حينذاك مايوحى بأنىسأتركها وصار هذا التهديد يجرى على لسانها حتى فقد معناه ،ولم يعـــد له من أثر على ٠

أما عن السر فيما انتابها من تحول فهو مالاأعلمــــه ، قد يكون لظروف الحمل والولادة أثرها عليها ، فأنا أسمع أن الحمـــل والولادة

يؤثران على أعصاب المرأة ، وقد تكون غيرتها العنيفة البلهاء هي السبب فيما اعتراها من اهتزاز ، فلقد سألتنى مرة فجأة وبلا مقدمات :

ـ هل تحب سهير كثيرا ؟

فأجبتها ثائرا :

ـ لقد سئمت هذا السؤال ٠

ـ أنا لاأعنى سهير ابنتنا ٠

وكانت هذه هى المرة الاولى التى نتحدث فيها عن «سهير» زميلتنا فأجبتها فى هدوء ٠

ـ أنا لاأحب أحدا ٠٠ ولكنها تحبنى ٠

وكانت تجلس على الكنبة ،على حين كنت على بعد خطوات منها أتابع عملى فى احدى لوحات الكلية ، فنهضت وتجهت نحو النافذة التى كانت مغلقة ففتحتها ، ووقفت تتأمل النيل الغارق فى الظلمة ٠ وكان ذلك فى احدى أمسيات شهر يناير ، وكان الجو قاتما ثائرا ، فهبت من النافذة ريح باردة نثرت الأوراق على أرض «الاتيليه» وراحت تضرب جنبى وتعبث باللوحة ٠٠ فصرخت فيها ٠

ـ ألا يمكن أن تغلقى الشباك وتهدئى فى مكان ٠٠ أوفاذهبى ٠٠ فأغلقت النافذة ، وعادت الى مكانها ، وتريثت قليلا ثم سألت ٠

ـ هل هى جميلة ٠٠ ؟

ـ من هى ٠٠ ؟

ـ سهير ٠٠

ـ جميلة جدا ٠٠

وسكتت لحظة ثم قالت :

ـ ان مصطفى يقول ان جمالها من النوع البارد ٠

ـ وماذا يفهم مصطفى فى النســـاء ٠٠ ومع ذلك فهى ذكية على الأقل ٠

ـ ولكنها لا يمكن أن تحبك مثلما أحبك ٠

***

كانت قد نشأت بينى وبين سهير علاقة لا أدرى بماذا أسميها ، كان من الصعب اخفاؤها ، ولم يكن يشغلنى أمر اخفائها ، فلم تكن تفترق عنى فى الدقائق التى تتخلل المحاضرات ، فاذا ما انتهى اليوم الدراسى التقينا فسرنا معا حتى محطة الاتوبيس ، فكنا نسير جنبا الى جنب فى خطوات وئيدة ، أتكلم وتسمع ، فأحدثها عن آرائى فى الفن وفى الناس

وفى كل شيء . فكانت تغرق فى الضحك عندما أتكلم عن أساتذتنا الفارغين ، وتؤخذ عندما أكلمها عن المدارس الفنية الجديدة المتحررة ، وتسألنى خلال ذلك أسئلة لا حصر لها ..

ولم يكتف مصطفى بما يسببه لى من ضيق فى العوامة ، بل لاحقنى فى الكلية أيضا ، فراح يقحم نفســــه ـ برقته الانثوية ـ بينى وبين « سهير » . ولقد أخطأت أنا منذ البداية اذ وصلت بينهما ، فقد كنت أعتقد أن حبا واحدا يكفيه ، ولكنه فيما يبدو يخفى وراء قناعه قلبـــــا طماعا ، لا يكتفى بحب واحد ، فلقد أحب « سهير » أيضا ، والا فما معنى ماكان يأتيه من تصرفات .. ؟

كان اذا رآها معى فى مكان ما بالكلية ، يقترب منا مبتسما ، ثم لا يلبث أن يتكلم فى موضوعه الوحيد ، فقد وجد أخيرا موضوعا يتكلم فيه ، أعنى عن مشروعه الذى يعده عن « المعذبات » .

يقول وهو ينتقى الكلمات ويختار أرق النغمات لالقائها ، « أنا لا أصدق أن امرأة تزل بمحض اختيارها .. فمعالم الانسانية عند المرأة أدق وأعمق .. وكذلك القيم .. وأنت ترين هذا الصنف من النساء... أعنى المعذبات يمشين بأقدام دامية فى طريق كله أشواك .. ومن من الناس يمشى فى طريق كله أشواك برغبته وبمحض اختياره ؟ . لابد من وجود وحوش آدمية تدفعهن .. أو على الأقل تجذبهن لتستغل حاجتهن الى اللقمة . تصورى .. حياة .. وكرامة .. وقيم .. كلها تضيع من أجل قروش .. من أجل اللقمة .. أنا لا أصدق أنهن يجدن لذة فى هذا الطريق .. ان نظراتهن الكســــيرة ، ولمحات الذل التى تنطبع على وجوههن ، تصرخ بأنهن ضحايا ... معذبات ...

« ان المشروع الذى أعده .. سيعبر عن هذه المأساة بكل جوانبها ... لن أحكى قصصا بطبيعة الحال ، فلست قصاصا .. انما سأقدم نماذج بشرية حية .. كل أنموذج فى وجهه قصــــة .. وسأعتمد على التعبير .. باللون والظلال .. ستكون الظلال غالبة .. لأن هذا الصنف من الناس يعيش فى الظلال .. هل فهمت ما أعنى .. »

ويخيم الصمت بعد هذه السلسلة من الحماقة ، فأتوقف أنا عن العبث بلحيتى ، وأمد منديلى الى سهير .

ـ جففى دموعك .. فلا بد أنك ستذرفين بعض الدموع .

غير أنها تبدو متأثرة بالفعل ، فهى تمضى دقيقة تحدق فى مصطفى متأملة قبل أن تحول عينيها عن وجهه الأبله .

وصار يعمد الى الالتقاء بها في غيبتي ، ولعله راق له أن يؤثر فيها كل مرة بكلماته التي لا تتغير عن معذباته ، والمؤكد أنهـــا ضاقت به وبحديثه ، فقد سألتني مرة :

ـ متى ينتهى مصطفى من مشروعه ٠٠ ؟

فضحكت وقلت :

ـ حتى ينتهى من الحديث عنه ٠٠ ؟

فضحكت بدورها ، ثم قالت :

ـ أنت لم تحدثنى عن مشروعك ٠

فقلت :

ـ لن أحدثك عنه ٠٠ حتى أنتهى منه ٠

ثم أضفت :

ـ ولن أحدثك عنـــه عندئذ ٠٠ بل سأترك عملي يتحـدث عن نفسه ٠

* * *

لم تكن فى رأسى فكرة واضحة عن « مشروعى » فى ذلك الوقت ، بل لم أكن قد فكرت فيه على الاطلاق ، ذلك أن أى عمل فنى يفقد جماله بل وفنيته اذا قام على توجيه من الفكر ٠٠ وتكفينى أيام لكى أمســـك بفرشاتى وأتركهـــا تعبر عن نفسها بغير تحكم من رأسى ٠٠ وانما من احساسى ٠٠ حينئذ سأقدم صورا من الأعماق حيث تكمن الحقيقة خالية من الزيف ٠ ٠

لذلك كنت أسخر من اسماعيل ومصطفى وهما يغاليان فى الاهتمام بمشروعيهما اللذين لا يعبران الا عن أفكار سطحية تســـتولى عليهما ، ويتحدثان عنهما أكثر مما يرسمان ، وكأنهما يستعدان بعمليهما لتغيير مجرى التاريخ الانسانى ٠

* * *

وأدهشنى ، أن عدت ذات مساء الى العوامة ، ففوجئت بروز متجمدة على الكنبة على حين يرسمها كل من مصطفى ورفاعى ٠٠ ولا شك أنها لم تكن تدرى أنها أصبحت بذلك احدى معذبات مصطفى ٠

لم يثرنى الموقف بقدر ما أثارنى البرود الذى استقبلنى به مصطفى وكأن الأمر لا يخصنى ، ولم أفهم سببا لأن يتخذها رفاعى موضوعا لاحدى لوحاته ، فهو لم يكن قد استقر على موضـــوع لمشروعه بعد ، بل انه لم يستقر على موضوع حتى اليوم ، وعلى أية حال فاننى لم أهتم به ، وتوجهت الى مصطفى قائلا :

ـ لم لا ترسمها عارية ·· فأنا لا أعتقد أنها تمانع ؟ ·

فشهقت روز ·· وقال مصطفى فى هدوء :

ـ أنا لا يهمنى مفاتن جسمها ·· بل ان ما يهمنى هو عينـــاها ونظرتها · ومسحة الألم التى تظلل وجهها الملائكى البرىء ·

ـ ان كل شىء تافه يبدو ملائكيا فى نظرك ··

ـ ومع ذلك فأنا لا أرى فيك شيئا ملائكيا ·

ـ لان الملائكة لايوجدون الا فى عقول المجانين ·

فاحمر وجهه ، واضطربت يده ، ومع ذلك لم يلتفت الى ، وتابع تلطيخ اللوحة بالألوان بغير وعى · وكان « رفاعى » قد ابتعد عن حامله ، واستقر على الكنبة بجانب روز ، وراح يرقبنا بعينين بليدتين ، ولا يكف عن اصدار أصوات مكتومة من أنفه المسدود ·

واجتاحتنى رغبـــة لذيذة فى أن أدمر مصطفى على مرأى ومسمع من « روز » وأن أفعل نفس الشىء فيها نفسها ، فقلت :

ـ هل نويت أن تتخذ سهير موضوعا لك أيضا ·· ؟

فأجاب فى انفعال :

ـ ان سهير ليست ضحية ·· ومشروعى عن الضحايا ··

فتدخلت روز وسألته فى غباء :

ـ وهل أنا ضحية يا مصطفى ·· ماذا تعنى بالضحايا ·· ؟

فافتعلت أنا ضحكة عالية ، على حين حاول هو أن يخفى الاضطراب الذى ألم به وقال لها فى صوت ممزق :

ـ ألست ضحية ياروز ·· ؟ !

فأجابته فى حدة :

ـ أنا لست ضحية ·· ماذا تعنى بالضحية ·· اننى أحبه ·· ولى ابنة منه ·· هذا كل شىء ·

فقال وهو يهز رأسه فى يأس :

ـ ومع ذلك فأنت لست ضحية ·· !؟

وسرنى ماصار فيه من حرج ، وقلت له :

ـ ومتى تصلح سهير لتكون موضوعا لك ·· ؟

ـ ان سهير لن تكون موضوعا لى أبدا ··

ـ حتى ولو جاءتنى هنا ··

فلم يعد يتمالك نفسه ، وصاح :

ـ أنت واهم ·· أنت تعبث بالبلهاوات ثم يصور لك غرورك الكريه ان في امكانك أن تفعل أي شيء ·· ولكن سهير ليست بلهـــاء ·· فافهم هذا ، انها ليست بلهاء ..

وصرخت روز من بعيد :

ـ وأنا لست بلهاء ·· قلت لك ألف مرة انني لست بلهاء ··

وتابع مصطفى صياحه ، وكان قد اقترب مني حتى أصاب وجهي برذاذ من فمه :

ـ أنا أتحداك أن تجرؤ على تقبيل قدمها ·· أتحداك ·· قل في أمك ماشئت ·· قل في امرأة أبيك ماشئت ·· ولكني أتحداك أن تجرؤ على تقبيل قدم سهير ·

وكان لا بد من أن أضع حدا لهـذا الزعيق المهووس ، فصــفعته ·· وخيل الي انى صفعت أبي واسماعيل « وعمـــال البناء » « ومعذباته » مجتمعين ، فأحسست بالراحة ·· وصعق مصطفى ·· وتجمد في مكانه ، وقد التصقت راحته بخده المصفوع ، يحدق في وجهي بعينين مشدوهتين . على حـــين وقف رفاعي مبهوتا لا يعرف ما يفعل ، وتحركت روز فوقفت بجانبي في صمت ·· وفجأة ارتفع من ناحية الباب صوت ـ صعيدي ـ غريب جاف :

ـ به ·· ايه اللي جرى يابوي ·· ؟

فوجهت عيني نحو الصوت لأجد اسماعيل يقف في دهشة يتأملنا ، ومن ورائه اثنان من عمال البناء ، ملطخان بالأسمنت والتراب ، يديران عيونهما حول المكان في غباء ـ ومد أحدهما رقبته ، ثم قال :

ـ دي باين عليها ورشة تصاوير يامحسب ·

فاستدرت ، وغادرت « الأتيليه » مارا باســماعيل ، « وموديليه » المضحكين ، ولحقت بي روز على سلم العوامة · وكانت الست لواحظ تقف على مقربة من مدخل طابقنا تتلصص ، فابتدرتني سائلة :

ـ هل حقا سيرسم اسماعيل هؤلاء الناس ؟ ··

فبصقت على الارض ، وتابعت طريقي ومن ورائي « روز » ··

* * *

وفي عصر اليوم التالي ، كنت متمددا على سرير رفاعي ، أحدق في السقف وأنصـــت الى طنين ذبابة ، ولا أفكر في شيء ، وكان اسماعيل ورفاعي ومصطفى يعقدون مؤتمرا صاخبا في « الاتيليه » فكانت أصواتهم تتناهى الي من وراء الجدران الخشبية ، مختلطة تارة وتارة واضحة .

كان اسماعيل يقول في صوته الأجش :

ـ لقد كنت أقول دائما ‥ انه يجب طرده من العوامة ، ولكنك كنت تعترض فى كل مرة ٠

فيرد مصطفى :

ـ كيف كنت أوافقك على طرده ، وهو زميل لنا ٠

ـ هذا ماتقوله دائما ، ولكنه لا يتصرف كزميل ، وقد حول العوامة الى « وكر فساد » ، فيتدخل صوت رفاعي .

ـ لا أعتقد أنك تشير الى النساء اللاتى كان يجلبهن ؟ ٠

فيجيب اسماعيل :

ـ انني أقصدهن أيضا ٠

ويقول رفاعى :

ـ كنا جميعا نؤيده في هذا الأمر بالذات ٠

ويظهر صوت مصطفى من جديد ٠

ـ كنتما تؤيدانه فى هذا ٠

ويهتف اسماعيل فى غيظ :

ـ وأخيرا ها هو ذا يضربك ٠

ويخيم الصمت ثوان ثم يقول مصطفى :

ـ لعلى كنت المخطىء ‥ فلقد بدأت ٠

فيقاطعه اسماعيل صائحا :

ـ ان رقتك لتصل فى بعض الأحيان الى حد الميوعة يا مصطفى ‥ انك لا ‥ ويسكت اسماعيل كأنما قطع لسانه على حين غفلة ‥ ويسكت الجميع ٠ وتمتد فترة السكون حتى أتساءل بينى وبين نفسى عن سببه ٠

وفوجئت بروز تندفع داخلة حجرتى ، مشحونة بالقلق والانفعال فتقف مترددة ، ثم تجلس على حافة السرير ٠ ولم أحول عينى عن السقف ولم أوجه لها كلمة ، فلبثت صامتة تعصر أصابعها ، ثم قالت فى صوت خافت مضطرب :

ـ ان سهير مريضة ياجميل ‥

وسكتت برهة ثم تابعت فحيحها :

ـ عندما تركتك بالأمس ٠ وعدت ‥ وجدتها مريضة ‥ كانت ساخنة كالفرن ‥ ما كان يصح أن أتركها ‥ ولما رأتها عزيزة اليوم ‥ قالت لى ‥ انها مريضة ‥ وانها ستموت ‥ وقالت انه يجب عرضها

على طبيب ٠٠ وقد كتب لها الطبيب كشفا طويلا بالدواء ولابد من الدواء لها ٠٠ لتعيش ٠٠

وسكتت مرة أخرى ٠٠ وقد تلاحقت أنفاسها ، فلما لم أتكلم صرخت :

ـ جميل ٠٠ هل تسمعنى ٠٠ ان سهير مريضة ٠

كنت فى ذلك الوقت أفكر فيما كان يدور فى « الاتيليه » وفى كل ماقيل ، وكل ما يمكن أن يقال ، كما كنت أفكر فى طعنة أوجهها الى الشلة المجتمعة ، فأجعلها تنفذ الى أعماقهم ، وطرأت لى فكرة مباغتة ، فقلت :

ـ اغلقى الباب وتعالى يا روز ٠

فوقفت على قدميها ، ولكنها لم تتحرك ٠٠ فالتفت اليها ، وتبينتها لأول مرة فى ضوء الحجرة الخافت ، كانت منتصبة كالتمثال ، وقد تجمدت نظرتها ، وانفرجت شفتاها وبدا وجهها شاحبا هزيلا وكأنها تعانى المرض هى نفسها ٠

وسمعت صوت اسماعيل يقول فى ثورة :

ـ متى تنتهى هذه المهزلة ٠

فاعتدلت فى السرير وقد تملكنى الغيظ ، وصحت فى روز :

ـ قلت لك ٠٠ اغلقى الباب ٠٠ ماذا تنتظرين ٠٠ ؟

ـ ولكن البنت مريضة ٠٠ وقد تموت ٠٠

ـ وماذا تريدين منى ٠٠ ؟

ـ العجوز ترفض مساعدتى ٠٠ والبنت فى حاجة الى دواء ٠

ـ اغلقى الباب يا روز وكفى عن البكاء ٠

ـ ان العجوز ترفض مساعدتى ٠ ٠ وتقول ٠ ٠ خذى من حسن افندى ٠ وراحت تردد بغير وعى « البنت مريضة ٠٠ البنت ستموت » ٠ وكان رأسى ملتهبا قبل مجيئها ، كما كانت أعصابى ثائرة ، فلم يكن فى طاقتى أن أحتمل صراخا وعويلا ومزيدا من المضايقات ، فصحت فيها :

ـ ابعدى عنى أنت وابنتك ٠٠ اذهبى لحسن افندى ٠٠ اذهبوا جميعا الى جهنم ٠٠ لا تدخلى هنا مرة أخرى ٠٠ لا تدخلى هذه العوامة أبدا ٠٠ لم أعد أطيق رؤيتك » ٠ ودفعت بها خارج الحجرة وأغلقت الباب دونى ٠

❋ ❋ ❋

وبعد قليل سمعتها تقول « ابنتى مريضة يا مصطفى ٠٠ أخشى أن تموت ٠٠ » فقال اسماعيل « دعيها تموت ٠٠ هذا أفضل لك ولها ٠٠ »

فصرخت فى عصبية :

« لماذا لا تموت أنت ·· لماذا لا تموت المشلولة ·· لماذا لا تموتون جميعا ؟ · »

* * *

لا أستطيع أن أجزم بحقيقة الأسباب التى دفعت مصطفى لأن يعترض على فكرة التخلص منى ، وجعلت اسماعيل يبتلع اقتراحه فلا يصر عليه ، ولكنى أستطيع أن أخمنها ، وهى لاتعدو أن تكون أسبابا مادية تتعلق بأجرة العوامة · فلقد انفق اسماعيل ماكان قد رجع به فى بداية العام الدراسى من فلوس فى شهرين ثم عاد الى طبيعته الأولى يشكو مرارة الافلاس ، ويرسم صورا عارية من وحى الذاكرة ، ثم يريق ماء وجهه لقاء جنيهات من الخواجة « ارتريان » · ومصطفى برغم أن أباه متيسر الحال ، الا أنه لا يقل تفاهة عن أبى ، فهو لا يرسل له الا مايكفى ضروراته وهى لا تكفيها الا بشق النفس وان لم يفصح مصطفى نفسه عن حقيقة ما يعانيه ، ومعنى هذا أن رحيلى عن العوامة كان فى غير صالحهما على أى حال ·

بقيت اذن فى العوامة ، برغم أنفهما ، ولكننى بقيت بعيدا عنهما ، فلم أكن أدخل « الاتيليه » فى وجودهما ، وصار مجرد النظر اليهما ، وسماع صوتهما يثير فى الحنق والضيق ، كما أصبحت لا أطيق منظر عمال البناء الذين باتوا يشاركوننا حياتنا ، « ويوسخون » العوامة بترابهم وأسمالهم ، ولا منظر « الموديلات » العفنات اللاتى يجلبهن مصطفى ليتخذ منهن موضوعا لمشروعه السقيم ·

كان رفاعى يتقرب الى ، وكان تقربه ذاك أمرا طبيعيا تحتمه ضرورة اشتراكنا فى سرير واحد ، كما كان تصرفا عاديا من شخص ليس له مشرب محدد ، وبالرغم من ذلك فقد ضقت به مثلما ضقت بكل شىء ، فلم أعد أحتمل ضحكته الغثة ولا نظرته البليدة ، ولا أفكاره التى لا ترتفع عن موطىء قدميه ·

ذات ليلة منذ أسبوعين مضيا ــ كنت أهبط درج الشاطىء متلمسا طريقى الى العوامة خلال الظلمة المحيطة بها ، فرأيته يخرج متسللا من باب صاحبة العوامة الذى أغلق وراءه على الفور ، فلما فوجىء بى وقف يفرك راحتيه فى قلق صبيانى ، ولو سكت لما عرفت شيئا مما يدور وراء ذلك الباب ، فكثيرا ماينزل أفراد الشلة الى « الست لواحظ » ليسمعوا أغنية « لفيروز » أو ليشربوا الشاى ان لم يكن لدينا سكر ، ولكنه ــ ويبدو أن اضطرابه لم يتح له أن يفكر ــ قال فجأة وقبل أن أفتح فمى ·

ــ أى حاجة ·· ولا يهمك ··

ولم أكن فى حاجة الى مزيد من الايضاح ، فأحسست بالاشمئزاز وانصرفت عنه ٠

وفى السرير ، حاول أن يبرر لى الوضع كله فى لهجة طفل يحس شناعة فعلته ، وراح يصور لى تفاصيل جســـد الست لواحظ ، ويعدد محاسنها من غير أن يقتنع هو بحرف واحد مما يقول ، فقد كان لا يفتأ يبصق على الأرض بين عبارة وأخرى ، فلم أعد أطيق جواره ونهضت فغادرت الحجرة الى الاتيليه حيث أمضيت الليلة كلها على الكنبة ٠

* * *

باختصار لم أعد أطيق العوامة ، ولا أشخاصها ، ولكننى لم أفكر قط فى الرحيل عنها ، فقد كنت أرى أن بقائى بها أمر ضرورى لمهمة ما لم أكن أتبينها بوضـــوح ٠ لم يكن المشروع هو ما يشغلنى فقد كرهت المشاريع وقررت ألا أفكر فى أمرها الا قبل موعدها بأسبوعين ٠٠ ولم تكن روز هى سبب بقائى فاننى لم أعد أطيقها هى الأخرى ، بل لم أعـــد أطيقها بصفة خاصـــة ٠٠ فلابد أنى بقيت لأتلذذ بمرأى مصطفى وهو يشقى وكنت أعرف كيف أشقيه ٠

* * *

وفى الكليـــة ، كانت السنة الدراســـية تلفظ أنفاسها لتلحق بالسنوات الأخرى ، ولكنها كانت تختلف عن كل السنوات الأخرى ، فكانت أسابيعها الأخيرة تمضى خلسة ، وفى سرعة ، والوجوه الصفراء ازدادت اصفرارا ، والعيون التى كانت تطفح بالأمل صارت تقطر يأسا ، والاصطلاحات الفنية الجوفاء صارت تقال فى غير حماس ٠٠ لم يعد هناك أمر من الأمور يجرى فى حماس ٠٠ حتى تهريج الطلاب ، صار مفتعلا ميتا ، كأنه اللفات الأخيرة لعجلات قطار يزمع الوقوف ٠

ولا أظن أن شيئا كان يربطنى بالكلية غير « سهير » ولا يعنى هذا أننى كنت أحبهـا ، فلقد قلت لك ان فى تكوينى شـيئا ما يرفض الحب ، ومع ذلك كنت مرتبطا بها ، وقد ازددت بها ارتباطا بعد أن تحدانى ذلك « الغشيم » ٠

لم أكن أتكلم معها عن العاطفة ، فأنا لا أجيد الكلام عن العواطف ، ولا يستهوينى الكلام عنها ، وأنا لا أذكر الآن الأحاديث التى كانت تدور حول أمورنا الشخصية بينى وبينها بالتفصيل ، ولكنى أذكر أنها كثيرا ما كانت تتكلم عن زوجها ، فكان كلامها عنه يفزعنى ، فقد كنت أحس بها تنأى عنى ، ولكنى كنت لا ألبث أن أستردها ٠ فسهير ســـاذجة ، ولكنها ساذجة واعية ٠٠ مصطفى ساذج فحسب ، وروز ساذجة أيضا

وكذلك امرأة أبى ، أما سهير فساذجة واعية ٠٠ ولا أدرى كيف أفسر لك ذلك ٠٠ فهذا ما كنت أحسه ، ومن الاحاسيس ما يعترينا ولا ندرى كيف نعبر عنه ٠

تراها تضحك فى صفاء لأقل مفارقة حتى تدمع عيناها الزرقاوان الجميلتان ، وتتكلم فى رقة متناهية حتى تحس وكأنها صارت رهن اشارة منك ، ثم لا تلبث أن تتخذ ملامحها سمة الجد فلا تدرى ما اذا كانت قد غيرت أفكارها دفعة واحدة أو أن مصطفى همس من بعيد بشىء بلغ سمعها ٠

وبالرغم من ذلك فقد قررت أن أستحوذ عليها ٠

***

لم أصارحها برغبتى ، فان أية امرأة مهما بلغ سقوطها ، لا يجدى معها أن تصارحها برغبتك ، فان ذلك حرى بأن يثير فيها النزعة المظهرية الزائفة ، لذا فقد قررت أن يكون ذلك مفاجأة ، فالمفاجأة تشل تفكير المرأة ومن تم تتصرف بوحى من حقيقة مشاعرها ورغباتها ٠

ولقد جاءت سهير أخيرا الى العوامة ٠٠ وكان ذلك منذ أيام ٠

تركنا الكلية خلال ساعات الدراسة ، وسرنا معا على أقدامنا حتى العوامة ، فكانت منتشية طوال الطريق ، تضحك وتبتسم ولا تكف عن الحديث ٠٠

وعندما بلغنا العوامة ، وقفت على الشاطىء تتأملها فى اعجاب ثم قالت :

ــ لو قلت لى انكم تقيمون فى مكان آخر غير هذه العوامة لما صدقتك ٠٠ ورأتنا « الست لواحظ » ونحن نعبر السقالة ، فاكتسى وجهها بدهشة تدعو للضحك ٠٠ وحيتها سهير بهزة من رأسها ، غير أنها أشاحت بوجهها وأغلقت بابها فى عنف .

وظلت « سهير » معى ساعة فى العوامة ، ثم رحلت قبل عودة بقية أفراد الشلة ، وقد كانت على عجل عندما غادرت العوامة فنسيت منديلها الحريرى المعطر على الكنبة القش .

وعاد مصطفى واسماعيل ، ولم أكن قد بادلتهما الحديث منذ يوم شجارنا ، ولكنى لم أتردد فى أن أواجه مصطفى بهذا الحدث ، فللضرورة أحكام .

ألقيت بمنديل سهير عند قدمه وقلت فى سخرية :

ــ أرجو أن ترد هذا المنديل الى سهير .. فلقد نسيته هنا ..

اشتعل وجه المسكين ، وشلت حركته وكأنه تلقى خبر وفاة أبيه الذى يعبده .

ولكنه ما لبث أن أطلق صرخة مذهولة :

ـ كاذب .

فقلت وأنا أضرب المنديل بقدمى امعانا فى السخرية ،

ـ اسأل الست لواحظ .. اسألها هى نفسها ؟

وهرشت لحيتى فى تلذذ وألقيت نظرة على الشاطىء من خلال النافذة وأضفت :

ـ قد تلحق بها .. فانها لم ترحل الا منذ دقائق .

فبدأ كمن لدغه عقرب ، وراح يلف حول نفسه وهو يهذى .

ـ مستحيل .. أنا لا أصدق .. مستحيل .. هل تصدق يا اسماعيل .. هل تصدق هذا .. لقد كنت أعتقد .

فأطلقت ضحكة عالية وقلت :

ـ كان يعتقد .. الملاك .. كان يعتقد ..

***

التافهون وحدهم والاطفال هم الذين يستعينون بالضوء وحده لمعرفة حقيقة الاشياء ، فالحقيقة لا يكشفها الضوء وحده ، بل لايكشفها الضوء على الاطلاق ..

يقول السرياليون أن الحقيقة لا يظهر منها سوى الخمس على حين تختفى أربعة أخماسها ، أما أنا فأقول : ان الحقيقة لا يظهر منها شىء بالمرة ، فكل ما يقع بصرك عليه زائف .. غير حقيقى .. مجرد ستار ملون .. يخدع ذوى النظر المحدود ، والأفق الضيق .



القسم الثانى

حكاية مصطفى



كنت اسمع أبى يقول « ان الحياة غير مسئولة عن اخطائنـــا »
ولعل هناك من قال ذلك قبله ، ولكنى لا أشك فى أنه استخلصه بنفسه
والا لقال انه قرأه أو سمعه .

وانا أومن بهـــذه الحقيقة ، وهى أن الحيــــاة غير مسئولة عن
اخطائنا ــ ولكن « جميل » لا يرى ذلك ، بل يرى أننا من أخطاء الحياة
نفسها . ولست أفهم كيف يمكن لانسان لم يعش غير خمس وعشرين
سنة أن يحمل كل هذا الحقد الذى يحمله جميل للحياة ، وللناس ،
ولكل ما حوله .

فى بدء صلتى به كنت أعتقد انه يحاول أن يلبس نفسه شـــخصية
ليست له ،ويفتعل الضيق بالناس والاشياء ، ويمثــل دور الساخط
الناقم ، ويتكلف ما كان يبدر عنه من تصرفات ظاهرة الشذوذ . ولكنى
اصبحت ــ اخيرا ــ على يقين من أن سخطه وضيقه وثورته كلهـــا ،
امور حقيقية ذات جذور بعيدة فى نفسه .. أما هل اكتسبها فعـــلا
بعد أن كان يصطنعها فى بادىء الامر ... أو أنها نشأت بطبيعتها فيه ؟.
فهذا ما لم يمكننى ــ حتى هذه اللحظة ــ أن أقطع فيه برأى . ومع
ذلك ، فحتى اذا كان هو قد عمد الى اصطناعها فلا بد أن وراء ذلك
ما هو أسوأ بكثير .

***

فى الشهر الاول لاقامته معنا بالعوامة سمعته يتكلم عن وفاة امه ،
وكان مما قاله أنه بكى كثيرا لموتها .. وبعد ذلك بشهرين سمعته يقول
أنه لم يهتم بموت أمه على الاطلاق ، فتملكتنى الدهشــــــة ، ولكننى لم
أواجهه بتناقضه حتى لا أسبب له حـــرجا لا داعى له ، ثم حدث أن
وقعت على احدى قصصه التى كان يقرأهـــــا فتصفحتها وفوجئت بأن
بطل القصة يحكى قصة وفاة أمه بنفس المعنى ، أعنى انه أيضـــا تلقى
خبر وفاة أمه بغير اكتراث .

وحدث مرة أن عثر اسماعيل بالصدفة على بعض أوراق لجميل،
فكانت تتضمن عبارات منقـــولة عن بعض الكتب ، كثـــيرا ما سمعناه
يرددها على أنها آراؤه الشـــخصية ، كما كانت تتضـــمن كشفا بأسماء
أجنبية مشهورة لم تكن لتفوته فرصة دون أن يلفظ بعضها .

وعلى اى حال ، فسواء كان يؤمن ايمانا حقيقيا بما يقول وما يفعل أو لا ، فان الحاصل هو أنه شوه حياته كما شوه حياة آخرين ، وانا منهم .

وانا لا أكره «جميل» ولم أكرهه فى يوم من الايام ، وانما كنت أكره دائما وسائله الغريبة فى التعبير عن نفسه ، واعتقادى فيه أنه شخص مريض ، ولكنه مشاكس ، يملأ الدنيا ضجيجا حتى يوهم بأنه الوحيد السليم وكل من عداه مرضى .

***

قبل ان ينتقل «جميل» الى العوامة للاقامة معنا ، لم تكن لى به صلة ما ، فقد كان له فى الكلية جو خاص لا يلائمنى ، فكنت أتحاشاه . وبرغم أن «رفاعى» حاول مرارا أن يربط بينى وبينه غير أنى كنت ارفض فى كل مرة .. فقد كنت أخشاه بحق ، وكنت أعتقد أنه لا يتورع عن أن يمزق قميص محدثه كوسيلة للتعارف أو لمجرد التسلية ، أو ليثبت أنه فنان ... مثلا .

وكان هناك بين الطلبة من يضحك لتصرفاته ، بل كان بينهم من يعجب به ايضا ، وهؤلاء كانوا يثيرون دهشتى أكثر مما كانت تثيرها تصرفاته نفسها ، فتصرفاته كانت تؤلمنى أكثر مما تسبب دهشتى .

***

وفى صباح ذات يوم من الايام الاولى فى العام الدراسى الماضى ايقظنى من النوم صوت غريب يزعق فى قلب العوامة .

« ايه يا رفاعى .. اليس عندكم فوط ؟ انت يا ولد يا رفاعى.. »
فنهضت على الفور ، وفتحت باب الحجرة ، ففوجئت بشخص يقف امامى عاريا تماما ، يبلل الماء جسده ، فلما تأملت وجهه عرفت فيه «جميل» ، ولم يكن قد بلغنى من قبل ولم يبلغ أسماعيل أنه ينوى الانضمام الينا ، كما أننا لم نره عندما دخل العوامة .. ومع ذلك وبكل هدوء ، سألنى عندما وقع بصره على :

ـ ما الحكاية .. أليس عندكم فوط ؟

وبرغم ما تملكنى من دهشة وارتباك ، ناولته الفوطة ، ثم ايقظت اسماعيل الذى أقسم ليضربن رفاعى ، لولا اننى هدأت ثائرته .

وكان كل ما دافع به رفاعى عن نفسه ، هو أن «جميل» زميل لنا ، ولا يصح أن نترك الزملاء فى الطريق ، وأنه عندما جاء به الليلة الماضية كنا نائمين ، وهكذا أصبح جميل زميلا لنا فى العوامة أيضا .

لو أردت أن تتصور ما أحـدثه جميل فى العـوامة من تغيير ، أو بعبارة أصح ما أحدثه فيها من انقلاب ، ففى امكانك أن تتصور يوما رائعا من أيام الربيع ، وصمتا شاعريا يوحى بأنبـل الاحاسيس ، ثم تتصـور أن الارض انشقت فجأة عن زوبعة شـيطانية متربة تقتلع الاشجار من جذورها ، وتثير سحابة قاتمة من الغبار ، وتقلب كل شيء رأسا على عقب . هذا هو ما أحدثه جميل فى العوامة .

* * *

كنا ، أنا واسماعيل ، نمضى ساعات راحتنا فى مقعدين متجاورين، نطل من نافذة العوامة على النيل ، نتأمل المياه السـمراء الجارية بلا توقف ، ونتصت للصمت ، واذا تكلمنا ففى هـدوء . ولم تكن نختلف أبدا ، فبرغم أن اسماعيل كان يفكر بطريقة ، وأفكر بأخرى الا اننا كنا دائما نلتقى ، فاذا لم نفعل أهملنا ما كان موضوعا لخلافنا ، وعدنا الى صمتنا أو الى ما كان فى أيدينا من عمل .

وكان رفاعى يشاركنا حياتنا بالصـورة التى رسمناها فلم يكن ليشذ عنا ، فاذا هو شذ كان من اليسير رده ، ويكفى عندئذ أن نهمله فسرعان ما كان يعود كما كان واحدا منا .

وكانت « الست لواحظ » صاحبة العوامة تحبنا فى طيبة بالغة ، وتجد فينا عوضا مؤقتا عن وحيدها الذى يعمل فى احدى مدن الصعيد البعيدة ولا تراه الا فى اجازاته السنوية ولم نسمعها تشكو منا قط ، برغم ما كان يأتيه رفاعى من أفعال صـبيانية كانت تتجاهلها ولا تقيم لها وزنا .

وبمجرد أن دخل جميل العوامة ، انقلب الهدوء الى ضـجة ، وصارت ضحكات رفاعى تتردد فى جنبات العوامة بلا انقطاع ، فقد كان من طليعة المعجبين بجميل .

وصار كل ما نحب يقرن ذكره أمامنا « بالتفاهة » وكل ما نعتقده يوصف بالسطحية ، وكل ما نعقده من آمال ، وهم وغبـاء وسذاجة . اما العوامة فهى نقطة سوداء تافهة فى « لا شعور المجتمع » ، وصاحبة العوامة ، امراة تافهة لا تبغى سوى اصطياد أحد افراد الشلة لتشبع رغباتها . وأساتذة الكلية — وهم خلاصة الفن فى بلدنا — تافهـون لا يفقهون شيئا فى الفن .

وعرفت النسـاء البائسات « تاجـرات الجنس » طـريقهن الى العوامة ، ولم يكن ليدخلنها من قبل ، فرفاعى معـدوم التجربة فى عالم النساء سواء كن محترفات أو هاويات بلهـاوات ، ولولا ذلك لما انتظر

وصول جميل . وكذلك فان اسماعيل ـ كما قال لك جميل . لم يكن ليمانع فى الحصول على المتعة من هذا الطريق لولا ما كان يعانيه من ضائقة مالية متجددة لا نهاية لها ، فكان يقول : « اننى أستطيع أن أستغنى عن النساء العمر كله ، ولكنى لا أستطيع الاستغناء عن الطعام يوما واحدا ، فبطنى أولى بقروشى ٠

وقد ظل اسماعيل على مبدئه هذا حتى هزه جميل وزعزعه ، فكان جميل يجلب هذا الصنف من النساء ثم يبدى استعداده لان يقرضه لو أراد ، ولم يكن يقرضه فى غير هذه الاحوال . ولعله كان يجد الراحة فى أن يرى الآخرين يشاركونه خطيئته .

***

أما فى غير هذا الامر ، فلم يلتق اسماعيل مع جميل على الاطلاق ، وظل يحمل له من الاحتقار والمقت الكثير ، ولم يكن يكف عن تنفيصه بكلمات كنت أشفق عليهما من عنفها ٠

وكان رفاعى على نقيض اسماعيل ، فعلاقته بجميل ـ كما تعلم ـ سبقت انضمام جميل الينا ، والغريب أنه كان قد بدأ يخطو متعثرا مترددا فى بادىء الامر فى نفس الطريق الذى شقه جميل ، ثم ما لبث أن تابع هذا الطريق فى بله وبغير وعى .

ففى مرة تعمد أن ينثر قطرات من الحبر على بنطلون اسماعيل لا لشىء الا ليضحك نفسه ... ومرة أخرى قال وهو ينفث دخان سيجارته فى حركة مسرحية بلهاء :

ـ أين هو الله .... حتى أومن به .

فكان رد اسماعيل ان أطلق ضحكة ساخرة عالية أربكت رفاعى فى حين كنت أشد شعرى .

وبرغم هذا فقد بقى رفاعى فى أعماقه هو نفسه لم يتغير ، أو هذا ما كنت أحسه برغم كل شىء . فقد حدث مرة أن كان ينصت الى اسماعيل الذى كان يروى فى تأثر بعض مشكلات أسرته اثر تسلمه لخطاب منها ، وفجأة قاطعه قائلا فى دهشة :

ـ عجيب يا أخى ..

فقال اسماعيل :

ـ وما العجيب فى هذا ؟

وشرد رفاعى بفكره برهة ، ثم قال :

ـ كلما سمعتك تتكلم عن أسرتك انتابنى القلق ، ورحت أتساءل. هل كانت أمي شربت الشاى فى نهارها أو لا .. فاذا تكلم جميل .. لم يعد يهمنى ألا تأكل على الاطلاق ... اننى أحس بأن شيئا ما ينشق فى داخلى .

وقد كان جميل كثيرا ما يردد « اننى أحس بأن شيئا ما ينشق فى داخلى » فلما سمعها اسماعيل من رفاعى قال له مبتسما أ

ـ أنا لم أكن أتصور أن بداخلك شيئا ما ، أليس هـذا عجيبا أيضا .. ؟

فألجم رفاعي ، وضحكت أنا فى حرج .

كان جميل يسميني ساخرا « بالملاك » ولا أدرى ما الذى أوحى اليه من تصرفاتى بهذه التسمية ... هل عزوفى عن الخطيئة ؟ .. واشفاقى على الضحايا البائسة التى كان يستجلبها لارضاء شهرته لقاء قروش ؟ .. أو لأنى لم أكن أقابل أفعاله الشاذة الموجهة الى بمثلها .. ؟

الحق أنى لم أجد سببا واحدا يبرر الكراهية التى كان يحملها لى، الا اذا كان اشفاقى على «روز» هو السبب .

هل يضايقك حديثى ؟

في الاسبوعين الاولين لاقامة جميل بالعوامة كان لا يفتأ يذكر أن له علاقة بامرأة فرنسية جميلة تحبه « الى درجة العبادة » وكان يتكلم عن حبها له فى تهكم واستهتار ليكسب نفسه مزيدا من الاعتداد .

وفى احدى أمسيات الأسبوع الثالث جاءت « روز » الى العوامة ، ففوجئت بطفلة تقف أمامنا حائرة كفأرة وقعت فى مصيدة . وأحسست كأننى ضربت « بشاكوش » على أم رأسى ... فظللت ملتصقا بمقعدى مصعوقا لا أفتح فمى . وأنا أقول انى فوجئت بطفلة ، اذ لا يمكن أن تكون « روز » غير طفلة ، فلا يكفى أن تثبت دفاتر المواليد أن بنتا أصبحت فى السابعة عشرة حتى تخرج بذلك ـ فى الواقع ـ من عداد الاطفال .. كان جسدها ضئيلا يفتقر الى كثير من مفاتن المرأة ، ذات وجه صبيانى برىء برغم ما حكى جميل عنها من قصص ومواقف ، وعينين مشدوهتين تعبران على الدوام عن حيرة وقلق ، تراهما فى عينى طفلة وجدت نفسها ـ فجأة ـ غارقة بأجمعها فى مشكلة أكبر من سنها فلم تكن « روز » اذن امرأة ، كما لم تكن فرنسية .

والحق أن مرأى « روز » فى العوامة كان يسبب لى ألما لا مزيد عليه ، فكنت أرى أننا جميعا مسئولون عن جريمة بشعة لا يرضى بها أى احساس انسانى · ولست ميالا للعنف لألجأ اليه لوقف مثل هذه الجريمة المستمرة، كما أن لجوئى الى العنف لم يكن ليجدى مع شخص مثل جميـــل ، فلم يكن أمامى الا أن أستعين بلسانى ، أو أن أكتفى بقلبى · حاولت مرارا أن انفرد بروز لأنبه فيها معالم الانسانية ، ولكنها ـ كما كان جميل يقول ـ كانت تحبه بحق ·· « حب عبادة » · اذ كان قد استولى على كل ذرة من تفكيرها، وأحاسيسها ·· ولم يكن هـذا بالعمل البطولى بالمرة ، فان الاستيلاء على مشاعر طفلة بلهاء وحيدة لا يحتاج الى جنون هتلر ولا الى دهاء تشرشل ·

كنا غالبا ما نترك لهما العوامة ، وكنت أفعل ذلك على مضض ·

وفى عصر ذات يوم ، جاءت روز ولم يكن هنـاك من الشـلة غيرى ، فكانت فرصتى لأن أبذل محاولة من جانبى · كنا فى مرسم العوامة ، وهى تقف متكئة على حافة النافذة تطل على النيل، على حين كنت جالسا فى مقعد قريب منها ، فسألتها :

ـ لماذا لا تذهبين الى المدرسة يا روز ؟

فاستدارت نحوى ، وتطلعت الى بوجهها الحائر برهة ، ثم ابتسمت وقالت :

ـ اننى لم أعد صغيرة لأذهب الى المدرسة ·

ـ وهل أنا صغير ·· اننى ما زلت أتعلم ؟

فطأطأت رأسها مفكرة وقد تشابكت أصابعها، كما تفعل كلما أحست بنفسها فى مأزق ، ثم قالت :

ـ بعد أن مرضت « ماما » انقطعت عن المدرسة ·

ـ لماذا ؟

ـ كانت المدرسة تكلفهـا كثيرا ، كما أنهـا أصبحت فى حاجة الى ، فأنا أنهض بخدمة البيت بعد أن تخلصت من « عزيزة » ·

وخيم الصمت لحظة ، فعادت تتطلع من النافذة ، وسألت :

ـ ألا يتوقف النيل عن الجريان أبدا ···؟

فعدت أسألها :

ـ هل تعلم « ماما » بما بينك وبين جميل ··؟

ـ طبعا ·· تعرف كل شىء ·

وضحكت صغيرة ، ثم أضافت :

ـ انها لا تحبه .. ولا تحب سيرته .. هل تعرف لماذا ..؟

ـ لماذا ...؟

ـ لأنه أحبنى وأهملها .

وضحكت مرة أخرى ، فأحسست بالضيق ، وقلت لها :

ـ انك تؤولين مشاعرها تأويلا سيئا .

ـ أنت لا تعرفها ..

ـ الحقيقة أن أى انسان لا يمكن أن يرضى بما بينك وبين جميل .

فقالت فى بساطة وهى تشيح بيدها :

ـ ولا يهمك .

ثم عادت تقول بعد قليل ، وقد اتخذت ملامحها طابعا جادا :

ـ ان جميل هو كل شيء بالنسبة لى ، وأنا لا أعرف كيف كنت أعيش بدونه ؟

***

كان مستحيلا على اقناعها بأية فكرة من شأنها الحط من علاقتها به ، أو بيان أوجه الشذوذ فيها ، فقد كانت لا ترى فى هذه العلاقة عيبا سوى ما كان يعمد اليه جميل من القسوة عليها فى بعض الاحيان . كانت هذه العلاقة تمثل فى عقلها وادراكها منتهى الحب وتقول :

« كيف لا أرضيه .. وأنا أحبه » أو تقول « ان فى امكانه أن يستغنى عنى . أما أنا فلا يمكننى أن أعيش بدونه » .

وكان جميل يعاملها بغلظة وجفاف لا أدرى كيف كانت تحتملهما .. فكان يطردها من العوامة أحيانا ، فتأبى الا أن تعود بعد دقائق تسترضاه ، فكنت أتمزق بينهما .

وذات ليلة ثار بينهما خلاف لا أدرى سببه فضربها ثم غادر العوامة ، وتركها ملقاة على الأرض تنتحب ، فذهبت اليها وساعدتها على النهوض ، وسرت بها الى كنبتنا القش فأجلستها ، وقلت لها فى ألم وضيق :

ـ متى تستردين كرامتك وتبتعدين عن هذا الحيوان ، ما الذى يربطك به ؟

فقاطعتنى صارخة :

ـ ابعد عنى أنت الآخر ، اننى أكرهكم جميعا ، وأكرهك أنت بالذات ،

وأذهلتنى صرختها، وأحسست بطعنة تنفذ الى قلبى ، فتركتها، وتشاغلت بالعمل فى لوحة كنت أعدها للكلية ٠

وبعد دقائق ، كانت قد كفت عن البكاء ، وشعرت بها تقترب منى ثم تتوقف ثم سمعتها تقول ٠

ـ أنا متأسفة يا مصطفى ، أنا لم أقصد ما قلت ، اننى أعزك كثيرا ، ولكن هل أنت متألم منى ؟

فقلت فى تأثر :

ـ لا يا روز ٠٠ أنا لست متألما منك ٠٠ بل من أجلك ٠٠٠ فسكتت هنيهة ثم قالت فى وهن :

ـ لقد أغضبته ٠٠ قل لى بصراحة يا مصطفى ٠٠ هل جميل يحبنى ٠٠؟

فأجبتها فى يأس :

ـ صدقينى ٠٠ ان جميل لا يحب أحدا على الاطلاق ٠

ـ ولكنه يحبنى ٠٠ أنا أعلم أنه يحبنى ٠

فلماذا تسأليننى اذن ٠؟

***

بعد تلك الليلة بأيام قلائل ، أعلن الينا جميل ، فى بساطة تدفع للجنون ، أن روز حامل منه ، ثم وقف يتأمل وقع الخبر علينا فى اعتداد كأنما فجر الذرة بنفسه ٠ وتمنيت لو صفعته فى تلك اللحظة ؛ وتمنيت لو كان ذلك كله حلما ، وقلت كلاما لا أذكره، كما لاأذكر ما قال اسماعيل؛ وكل ما أذكره أن رفاعى راح يصرخ: « ان أعصابه من حديد » ٠٠ أوشيئا من هذا القبيل ٠

وبت تلك الليلة أعانى أرقا لم أعرفه من قبل ، فكنت أتقلب على سريرى من جنب الى جنب ، أحاول الوصول الى قرار فى هذه المأساة ٠ وأيقظت اسماعيل ـ الذى ينام فى نفس الحجرة ـ أكثر من مرة لأسأله رأيه فى الموضوع ، فكان يزمجر ويلعن جميل وروز ثم يعود الى غطيطه ٠

وفى الفترات الضئيلة المتقطعة التى نمتها فى تلك الليلة رأيت أحلاما أشد ازعاجا ، كنت أنهض بعدها مذعورا ، وفى رأسى وهم بأنى آنا الذى اقترفت فعلة جميل وليس هو ٠

ومرت تلك الليلة ، كما مرت ليال أخرى كثيرة ، وانتفخت ثياب روز بصورة مؤلمة ، لاحظتها « الست لواحظ » وعلقت عليها بكلمات انسانية مؤثرة ، وسألتنى مرة :

« أليس لها أهل يا سى مصطفى » ؟ كيف يرضى أهلها عن هذا الوضع ٠٠؟

انهم ناس لا يستحون ٠٠ يا رب استرها على ولايانا ٠٠

وكانت الست لواحظ دائمة الشكوى منذ حل جميل بالعوامة ، فزادت شكواها بعد أن لاحظت حالة روز الجديدة ، وصارت تردد كلما رأتنى أو رأت اسماعيل :

« أليس هذا حراما ، انكم ستتسببون لى كارثة ، ستدخلونى معكم فى مصيبة ، أرجوكم اتركوا العوامة وارحلوا ؟ »

وكنت أظن أن ظهور معالم الحمل على « روز » من شأنه أن يرد جميل الى صوابه ويجعله يعدل عن فكرة الاحتفاظ به ، ولكنه لم يكن يهتم ، بل كان على النقيض يأتي بأفعال غريبة ، كأنها صفعات موجهة الى ، يكشف بها عن لذة شيطانية تسببها له تلك الحالة الغريبة ٠ فكان يقرب أذنه من بطن روز ، أمامنا ، ثم يقول في سرور مفتعل سخيف :

« اننى أسمعه يتكلم ٠٠٠ سيولد ابنى ناطقا » ٠

أو يقول :

« عندما يرى ابني النور فلن يصرخ ٠٠٠ بل سيبصق على من حوله ٠٠ »

وكنت أتساءل كيف تستطيع « روز » مواجهة الناس ، وكثيرا ما حاولت أن أقنعها بالتخلص من حملها، فكانت تنتابها هستيريا مفاجئة، وتصيح « انه ابنه أيضا ٠٠٠ وهو يريده ٠٠٠ وما دخلك أنت ؟ »

***

والغريب أن « جميل » كان قد أملى عليه تفكيره المعقد أننى أحب « روز » فكان لا يفتأ يستغل هذا الوهم ليسدد الى الاهانة تلو الاهانة ، وأنا أظهر عدم اكتراث فى كل مرة ، منعا لما قد يحدث من خلاف قد يؤدى الى ثورة في العوامة ٠ ولكن احتمالى وصل حدا توقف عنده ، اذ قال لى مرة :

ـ لا شك أنك مجنون بروز ٠٠٠ كم تدفع وأتخلى لك عنها ؟

فلم أتمالك نفسى وصحت فيه :

ـ أنت نذل ‥ ان خير وظيفة لك هى الاتجار فى الاعراض ٠

ثم تركت العوامة وفى نيتى ألا أعود اليها ، ولحق بى اسماعيل ، وامضى معى جانبا كبيرا من الليل فى احدى المقاهى ٠٠٠ وأقسم أن يطرد « جميل » من العوامة ، ولكنى كنت قد استعدت هدوئى ، وتبينت وجه الخطأ فيما قذفت « جميل » به من الفاظ سوقية رخيصة ، كما خشيت أن أترك اسماعيل ليواجه جميل وحده فيثير من المشكلات ما لا داعى له ٠٠٠ فقررت أن أعود ٠

***

كنت متلهفا لأن أنتهى من امتحانات تلك السنة حتى أعود الى البلد، فاستريح من الآلام النفسية الشديدة التى حاقت بى ، والتى صارت كضرورة لازمة للحياة فى العوامة ٠ ولم أتريث حتى أودع كل الاصدقاء ، بل غادرت العوامة على الفور فى ظهر آخر أيام الامتحانات فى طريقى الى البلد ٠

وهناك استطعت أن أفر ـ بجسدى ـ من العوامة ومشاكلها ، غير أن أفكارى ظلت مرتبطة بها أياما بأكملها ، حتى أنه كان ينتابنى احساس وأنا نائم بأنى لم أغادرها، فكان يخيل الى أنى سأفتح عينى فأرى اسماعيل على سريره قريبا منى يرسل غطيطه العالى المنتظم، وأسمع ضحكات رفاعى، وزفرات « روز » ‥ وصوت جميل الساخر يسب ويلعن ٠

وبمرور الايام ، استطعت أن أتخلص من كل هذا ، وفرغت للحياة البسيطة التى تجرى فى بلدنا فى رفق وبغير ضجة ٠ فاذا ما أوشكت الاجازة على الانتهاء عاودنى الشوق الى العوامة ، والى الزملاء ‥ واستولت على لهفة غريبة لأن أسمع أخبارا عن « روز » ٠

كنت (الثانى) فى ترتيب العائدين الى العوامة ، وكان جميل (الاول) ، وقد تلقانى بابتسامة ودية واسعة جعلت قلبى يهتز ، وأقنعتنى بأن ثمة تغير قد لحقه ‥ وأن أيام السنة الجديدة ، وهى آخر سنة دراسية فى حياتنا ، لن تكون مشابهة لايام السنة المنصرمة ؛ فتحاشيت الحديث اليه عن « روز » حتى لا أبدأ بافساد كل شىء ٠

ثم وصل رفاعى واسماعيل ‥ وكان اسماعيل ظاهر الحيوية ، وقد تخلص ـ الى حد ما ـ من تقطيبة وجهه الشهيرة ٠ كان قد أمضى أجازة نابضة بالحياة ، مشحونة بالانفعالات ، ثم عاد وفى جيبه ثلاثون جنيها « رزق حلال » كما سماها وكما هى حقيقة ٠

ولم تكن الفلوس هى كل ما عاد به اسماعيل ، فقد عاد بشىء أهم ،

وهو « فكرة لمشروعه النهائى » وراح يروى لى أحاسيسه وأفكاره التى راودته هو يعمل بين عشرات من عمال البناء الذين يكدون ويشقون ويغنون وقال كلاما مؤثرا عن التعب ، والرمال والظلال التى تحدد ما فى وجوه هؤلاء العمال من قسوة وقوة واصرار على المضى فى البناء ·· بناء أى شىء ، وأطلعنى على مجموعة من « الاستكشات » كانت تعبيرا صادقا عن كل ما يقول ·

كنت أنصت الى اسماعيل بكل مشاعرى وأنا أهتز ، ولم يعد لدى شك وأنا أنصت له — أنه يستطيع أن يفعل أى شىء ، فيستطيع أن يبرز ما فى وجوه هؤلاء العمال من صلابة الفراعنة ، وأن يخلدهم فى مشروع ؛ وأن يمزج فن الفراعنة بكل أفكارنا الجديدة ·

وكنت أنا أيضا — فى خلال الحماس الذى كان يثيره اسماعيل قد خلصت بفكرة لمشروعى ، أو بعبارة أدق ؛ استقر رأيى على فكرة هذا المشروع ·

ففى أثناء الاجازة توصلت الى أكثر من فكرة ، ففكرة عن «الفلاحين»؛ وفكرة عن « حياة الطلاب » ، ثم فكرة عن « المعذبات ·· » ؛ ولا أدرى لماذا استقر رأيى — فى حين كنت أنصت لاسماعيل — على أن يكون مشروعى عن « المعذبات » بالذات ·

لعل حديثه عن الالم ، والقروش ، والظلال ، وبالاخص ؛ الظلال ؛ هو ما ألهب فى الحماس لهذه الفكرة ··· فالمعذبات فى ذهنى ظلال ··· مجرد ظلال ·

❋ ❋ ❋

كانت البداية رائعة لكل شىء ، ولم يكن ليزيدها روعة الا أن تسير كما بدأت ، ولقد أصبح ذلك قريب الاحتمال بعد أن فوجئنا بالست لواحظ وقد غيرت نظرتها الى « جميل » ، فصارت تتحدث عنه فى حنان ، ولا تذكر اسمه مقرونا باللعنات ، وتطرى لحيته التى تعد فى رايها — دليلا أكيدا على رجولة حقة .

ولقد كانت لحية جميل مثارا لتعليقات متعددة فى الكلية ، وقد بدأت هذه التعليقات قبل نهاية العام الدراسى الماضى ، ثم اتصلت فى بداية هذا العام . ولا أعلم لماذا فكر جميل فى اطلاقها ، فقد فوجئنا به ذات يوم يقول وهو يتأمل وجهه فى المرآة :

— لسوف أطلق لحيتى .. يالها من فكرة ؟ ..

فهمس اسماعيل فى أذنى :

— لو راجعت ما قرأ ليلة أمس ... فلا شك أنك ستعثر فيه على شخصية شاب « شاذ » أطلق لحيته ، أو لعله رآه فى السينما ، فقد كان فى السينما ليلة أمس .

وانا لا أشك فى ان لحيته كانت سببا فى تعرفه على سهير وزميلتها نادية .

* * *

كنت فى طريقى الى باب الكلية عندما اصطدم بصرى « بروز » التى كانت تقف على مقربة من الباب تتصفح الوجوه فى شرود .. وقد رأتنى فى ذات اللحظة التى رأيتها فيها ، فتهلل وجهها ، وكانت مفاجأة لى فى الحقيقة ، ذلك انني لم أكن قد رأيتها خلال شهور أربعة ، ولم تكن قد ظهرت فى العوامة برغم مضى أسبوع على عودتنا .

كانت قد تغيرت عن صورتها التى كنت لا أزال أحفظها لها فى رأسى ، اذ ضاق خصرها ، وازدادت نحولا عن ذى قبل ، وتضاعفت خطوط الحزن المنطبعة على وجهها ، وارتسمت فى نظراتها دلائل عذاب طويل .

شدت على يدى فى حرارة ، ثم وقفت فى اضطراب تسألنى عن افراد « الشلة » .. وهالنى أن علمت منها أن جميل كان قد زعم لها أننا سنترك العوامة وسنبحث عن سكن جديد ... وسألتنى :

— هل عاد من البلد ؟ ..

— منذ أسبوع .

فتعلقت عيناها بوجهى لحظة ، ثم قالت فى لهجة حزينة :

— ولكنه لم يأت ليراها ؟ ..

— من هى ؟ ..

— ابنتنا ..

فأدهشنى أنى لم أتنبه الى ذلك ، برغم أن أول ماخطر بذهنى عندما وقع بصرى عليها هو أن أسألها عن مصير الجنين . كنت لا أزال آمل أن تكون قد تخلصت منه ولم تلده حيا فلم أتلق الخبر بسرور كما كانت تتوقع ، فاستطردت فى صوت منكسر :

— لقد وضعتها منذ شهرين ... ألم يخبركم جميل ؟

— لا .. لم يخبرنا .

فمطت شفتيها وقالت :

— لقد أرسلت له خطابا على البلد ... فالظاهر أنه لم يصله ...
وسكتت برهة ثم عادت تقول وهى تفتعل المرح :

ـ انها جميلة .. ولكنها صغيرة .. كالقطة .

ولم أفتح فمى ، وظللت صامتا أحدق فيها وفى راسى عشرات الافكار السوداء التى تداخلت حتى لم أعد أميز بينها ، فتابعت حديثها اذ لم تجد شيئا آخر تفعله .

ـ اننى سعيدة لأنها ولدت فى فترة الاجازات .. فلن تواجهنا مشكلة السن عند ادخالها المدرسة .. فلنا جارة .

فقاطعتها فى صوت حبيس قاصدا ان أقول شيئا اجاملها به أ

ـ بماذا سميتها ياروز ؟ ..

فهزت كتفها وأجابت :

ـ لم اسمها بعد ..

ـ لم تسمها ؟ .. طفلة تولد منذ شهرين ولا تسمى للآن ؟ ..

ـ لقد انتظرت حضوره حتى نشترك فى تسميتها .

ـ او لم تقيديها فى دفتر المواليد ؟..

ـ وما وجه العجلة فى ذلك ؟ ..

ـ أليس ذلك غريبا ؟.. وكيف تنادينها اذن ؟ ..

ـ ولماذا أناديها .. انها صغيرة ؟ ..

فنظرت فى آسى الى وجه هذه الطفلة الغبية التى أصبحت أما ، ثم قلت :

ـ ان فى بيتنا كلبة ولدت منذ أسبوعين ثلاثة أجـراء سميناها جميعا .

فسألت على الفور فى اهتمام :

ـ حقا ؟ .. وبماذا سميتموها ؟ ..

تنهدت وقالت فى يأس :

ـ سأبحث لك عن جميل .. انتظرى دقيقة ؟

ولم ابذل جهدا فى البحث عن جميل ، فقد وجدته حيث توقعت، أمام البوفيه ، وكان يحادث طالبتين مستجدتين هما سهير ونادية .. وعندما واجهته بأن روز تنتظره بدا عليه الغضب ، وكان من الواضح أنه قرر التخلص منها نهائيا :

سألته :

ـ هل حقا قلت لروز اننا سنترك العوامة ؟..

فأجاب فى هدوء :

ـ وهل كتب على أن اتحمل تفاهتها الى الأبد ؟..

فدارت الارض بى ، وقلت له :

ـ ولكن هذا خداع ، ولقد كنت تخدعها دائما .

فقال :

ـ ارجوك يامصطفى .. أنا اعلم انك تحبها ، فلماذا لاتحل محلى .. اذهب بها الى السينما .. خذها الى اى مكان .. خذها لك ؟

ولم أعد احس الا برغبة شريرة فى أن أنشب أظافرى فى عنقه.. وتمنيت لو مات أمامى فى تلك اللحظة ، اذن لشفيت غليلى وانتهت كل المتاعب . ولكنه مالبث أن قال :

ـ طيب ياسيدى .. سأذهب اليها .. فامسح دموعك .

* * *

من سوء الحظ أن تعرف شخصا مثل « جميل » وتتصل به مرغما فى أكثر من مكان . فانه ليفسد الحياة حيثما حل ، ويثير لونا من اليأس يجعل هذه الحياة عسيرة الاحتمال . ولقد كنت مخطئا اذ اعتقدت ـ فى بداية هذه السنة ـ أن الامور ستمضى هينة رقيقة لاعنف فيها ، كنت ساذجا بالتأكيد ، فلقد ظهرت « روز » فى العوامة من جديد فظهرت معها ألوان من التعاسات ، تعاستها وهى تذوى وتنهار تحت صفعات جميل الوحشية التى صارت طابع علاقته بها ، وتعاستى وأنا أشهد ذلك عن قرب ولا أملك ما افعله ازاءه ، وتعاسة جميل نفسه وهو يقضى على بقايا معالم الانسانية فى نفسه دون ان يحس بأنه شخص تعس .

كان كثيرا مايقول « انى حشرة » .. ولكنه لم يكن يقول ذلك الا باعتباره فردا من الناس ، وكل الناس فى رأيه حشرات . أما عن تعاسته الشخصية فانه لم يكن ليعترف بها ، وبالرغم من ذلك كان فى نظرى أتعس الناس جميعا .

وبالرغم من أن جميل كان يظهر كراهيته لروز الا انه يسمح لها أن تعود الى العوامة . واعتقادى أنه لم يكمن كراهية مايحس به نحوها، بل كان ذعرا منها ، فجميل يحس بالذعر كلما واجه الحقيقة ، لذلك فهو يحاول قدر استطاعته أن ينفيها ، والا فر منها .. فما بالك بحقيقة رهيبة هى من صنع يده ؟

* * *

وفى الكلية كانت « سهير » بدورها قد خدعت بلحيته وبحديثه المعقد عن الفن والناس والدنيا بأسرها .. ولعلها اعتقدت ـ فى سذاجة

الطلاب المستجدين — أن منتهى الفن أن تصل شخصية الفنان الى ماوصلت اليه شخصية « جميل » .

وأنا لا أذكر ماكان « جميل » يقول عندما كان يتكلم عن الفن .. فلم أكن أهتم بحديثه عن الفن كما لم أكن أهتم بحديثه فى أى موضوع آخر . وحديثه عن الفن لايخلو من الغرابة : ترن فيه — غالبا — ألفاظ وأسماء كان يحشوها فيه حشوا ، وأشك أنه كان يفهم مدلولها ، وقد حاول مرات أن يطبق أفكاره المشوشة عملا ، فخرجت من تحت يده لوحات تصور ذاته كما هى ، شاذة كل الشذوذ ، تفتقر الى الأصالة ، خالية من القيم ..

ولكن كيف يتأتى لسهير أن تعرف شيئا من هذا ، فى حين أننا أمضينا سنوات بجانبه حتى فهمناه ؟ .. وقد تفهمه هى يوما من الايام ، ولكنى كنت أخشى ألا يحدث هذا الا بعد ان يكون الوقت قد فات .

كان لابد اذن من شخص ينبهها الى حقيقة « جميل » ويحذرها من الانزلاق معه فى طريقه الشائك ، ولم يكن من المتصور أن أطعن فيه أمامها : فلم أجد وسيلة الا أن أحذرها من طرف خفى

وسهير ليست بلهاء مثل روز ، وهى وان كانت تبدو طيبة رقيقة، الا أنها ليست غبية ، لذلك فان احتمال سقوطها فى هذه الحفرة (أعنى جميل) كان بعيدا وخاصة أنها متزوجة فلم يكن لديها من الرغبات المكبوتة ما يجعل سقوطها هذا أمرا يسيرا .

ومع ذلك ، فقد كانت الالفة التى نشأت بين الاثنين تؤرقنى ، وتثير فى نفسى الاشفاق على سهير ، وكان جميل يفزعنى عندما يتكلم عنها فى العوامة ، فكان لايذكر منها غير جسدها ، والرغبة التى كان يتوهم أنها تطل من عينيها ، ثم هو يؤول كل عبارة من عباراتها ويحاول أن يستخلص منها معنى خاصا يؤدى الى شىء فى نفسه ، ولم أكن أستبعد أن يسند اليها عبارات لم تقلها . وباختصار كان اتجاه جميل اليها يقوم على غرض فى نفسه لايمكن أن يوصف بأنه غرض نزيه، وهذا هو ما أوضحه بفمه أكثر من مرة .

* * *

بدأت صلتى الحقيقية بسهير ذات صباح فى فناء الكلية اذ كانت تقف مع جميل يتحادثان ، فاتجهت نحوهما لأعلن الى جميل أن له خطابا مسجلا من البلد مع عم حسبين ، ولمحنى جميل ، فقال لها وهو يشير الى :

ـ ومعنا ايضا .. ملائكة ..

وكان واضحا انه يتمم حديثا عن اتعوامة ، آو عن الكلية ، ثم قدمنى اليها تقديما جادا ، على طريقته ..

ـ أخونا مصطفى .. هل تعرفينه ؟ .. الرجل الذى لو لم يصبح فنانا لصار نبيا من الدراويش ..

ثم ضحك : كما ضحكت هى فى رقة ، وصافحتنى

والتفت جميل الى وقال :

ـ لاتقل لى ان شخصا ينتظرنى .

ـ لا .. بل خطاب مسجل ينتظرك .

ـ حقا ؟ .. عن اذنك ياسهير .. لابد أن به شيكا ومجموعة من السباب .. وتركنا وانصرف .

ابتسمت سهير .. وقالت وهى تسوى شعرها ،

ـ عبقرى .

ـ من ؟ ..

ـ جميل ..

ـ آه ! ..

ـ فنان حقيقى ..

ـ كل من فى الكلية فنانون .. عم حسين نفسه فنان .

فبدا عليها أنها لم تصدق ، ومع ذلك فقد ازدادت ابتسامتها اتساعا .

* * *

وكثيرا ما التقيت بها بعد ذلك برفقة جميل آو منفردة .. فكنت احدثها عن مشروعى الذى كنت قد بدأت أمهد له وأعد مايلزمه من اخشاب « وتوال » والوان .. فكانت تنصت الى فى اهتمام ، ويبدو عليها تأثر حقيقى بما كنت اسرده من ألوان العذاب الذى أنوى التعبير عنه ، والذى يشكل حياة هذ الصنف من النساء .. موضوع مشروعى . وكان فى اهتمامها وتأثرها مايوحى بفهم أصيل ، وتقدير كامل لقيم الحياة التى افهمها .

واستطعت أن أدرس سهير عن قرب ، فخلصت الى ان بساطتها التى قد تولد طمعا عند من فى قلبه مرض مثل جميل ، هى بساطة نابعة عن طيبة قلب .. لا عن ضعف . وحديثها عن زوجها كان تعبيرا

عن حب صادق له ، لايمكن أن يزعزعه جميل بلحيته وسخافاته ، فأحسست بالارتياح .

* * *

وكان اسماعيل قد بدأ فى تنفيذ مشروعه الكبير ، مستعينا بشخصيات حية كان يستأجرها من بين عمال البناء .. ومن هؤلاء العمال « عم محسب » وهو رجل لايقل عمره عن الخمسين ، كان يأتى الى العوامة كل مساء بثيابه المغبرة ، يلطخ الاسمنت وجهه وجسده ، فيقف امام اسماعيل أو يجلس أو ينام على حسب الطلب ، فكان سرعان مايستغرق فى نوم حقيقى . ولعم محسب ملاحظات غاية فى الظرف كان ينتزع بها ضحكاتنا ، فكان يقول كلما منحه اسماعيل أجره « حجة يابوى .. رزج الهبل ع المجانين .. »

وفى مرة سأله « مابدل ماتضيع وجتك فى رسم البنى يادمين .. ماتعمل رسومات عماير ولا كبارى .. تنفع ياشيخ .. وتكسبك أكتر

وبدأت بدورى أنفذ مشروعى ، فتعاقدت مع اثنتين من الموديلات ، عرف عنهما أن لهما نشاطا فى الظلام ، يبدأ بانتهاء عملهما بالكلية ، وهذا تؤكده ملامحهن ذات الطابع الخاص ، الذى لاتكسبه الا من تزاول هذا النشاط .

وراء هذا المظهر الذى يبعث الاشمئزاز يكمن الالم فى أقسى صورة .. حيوانية بشعة تخفى وراءها أعمق معانى الانسانية .

سألت واحدة من هؤلاء كان جميل قد أتى بها الى العوامة ذات ليلة :

ـ لماذا لا تبحثين عن طريق آخر .. عن عمل أكرم لك ؟

فقالت هازئة :

ـ دلنى ياحبيبى ..

ولم يسعفنى تفكيرى بطريق ، فقلت :

ـ لايمكن أن يكون هذا الطريق .. هو الطريق الوحيد .

فقالت فى لهجة مؤثرة :

ـ لو كان لك خمسة أولاد يقاسون الجوع ، ويأكلون الزلط ، لالتمست لى عذرا .. هل تعتقد انى أجد لذة مع هؤلاء .. اننى أحس معهم بالاختناق والموت .. ولكننى أختنق وأموت من أجل اولادى .. منذ مات أبوهم وانا احاول أن اجد طريقا ... » وراحت تروى لى مأساة تفطر لها قلبي ..

وقصص أخرى .. وآلام لانهاية لها .. وكلها قصص وآلام تؤدى فى النهاية الى مظهر غث يثير الامتعاض ، وحيوانية بشعة تدهس كل مقومات الانسانية .. والرجل هو المسئول عن هذا كله .

***

ولم يرق مشروعى لجميل أبدا ، فكان لاينقطع عن اعلان سخريته به ، وبث تعليقاته المريضة عنه ،

« لن يحصل مصطفى على البكالوريوس بهذا المشروع .. لكن سيحصل على اذن بدخول الجنة .. »

« ان نقابة النساء الـ ... » سترفع قضية على مصطفى لأنه يشكك فى أصالة مهنتهن .. وغير ذلك من التعليقات الفارغة التى لم تكن تضحك غير رفاعى .

***

وبرغم هذا لم يفكر جميل فى مشروع ، وكان يقول دائما انه يكفيه أسبوع واحد ليفكر فيه وينهيه ... أما رفاعى ، فلم يكن يصل بنفسه الى هذا الحد من الاعتداد ، وانما كان له مذهب آخر لا يقل غرابة .

سأله اسماعيل مره .

ـ لم لا تبدأ فى مشروعك .. ؟

فأجاب :

ـ وماجدوى المشاريع .. كلام فارغ .

وسكت برهة ثم أضاف :

ـ ومع ذلك فلا بد من مشروع للحصول على الشهادة .. فالشهادة لازمة للوظيفة ..

وتحدث عن فكرة مشروعة فقال .

ـ سيكون مشروعى عن النساء والصيف ... النساء فى الصيف ... تستطيع أن ترى أروع الاجسام التى لا يمكن أن تراها فى الشتاء .. لا أدرى لماذا لا تثيرنا المرأة التى تلبس المايوه .. مثلما تثيرنا وهى بكامل ثيابها .. هذا غريب فعلا ؟ .

فكان تعليق اسماعيل .

« انه فى حاجة الى آلة تسجيل ... فقد أصبح لرفاعى أفكار . »
وبعد ذلك بأسبوعين عاد رفاعى فأعلن أن مشروعه سيكون عن « النساء العاملات » فطربت للفكرة ، ولكنه عاد فى يوم آخر يصرخ بأن مشروعه

سيكون عن « التافهات » وكان يعنى « المعذبات » من وجهة نظره .
وحتى هذه اللحظة لا أعلم شيئا عن فكرته الجديدة .

* * *

وخلال هذا النشاط الذى تفجر فى العوامة ، كانت روز لا تنقطع عنها ، فقد أصبح وجودها بها مرتبطا بوجودنا ، وكنت ادهش لاهمالها ابنتها طوال الساعات التى تقضيها معنا ، فكانت تجيب على دهشتى بالصمت ، أو تهز كتفيها .. وفى بعض الاحيان كانت تقول « اننى اعطيها كل الوقت .. فليس كثيرا أن أخصص لأبيها ساعة » . هـــذا برغم أن جميل لم يعد يطيقها دقيقة واحدة .

وقبلت « روز » أن تكون موضوعا لاحدى قطع مشروعى ، ولم تفهم معنى أن تكون من بين عناصر هذا المشروع ، فتلقت طلبى فى ارتياح وأسعدها أن تقدم صورتها فى معرض الكلية كعمل فنى له قيمته وأثره فى حصولى على البكالوريوس .

وباغتنى جميل وأنا ارسمها ، فثار غضبه وان حاول أن يبدو غير مكترث بالموقف ، وسألنى فى تهكم .

ـ لم لا ترسمها عارية .؟

فأجبته :

ـ أنا لاتهمنى مفاتن جسدها ... يكفينى مافى وجهها من تعبير ... وتطور الحديث بيننا تطورا سريعا كان يقصده ، فلم تسلم الملائكة نفسها من سخريته ، ومع أن رفاعى كان يرسم روز فى نفس الوقت فانه لم يهتم به . كان يكلمنى فى حقد مر لم يعبر عنه من قبل فى مثل هذه القسوة ... وكنت أحاول جهدى أن ابقى فى هدوئى ، ولكن لكل شىء نهاية ، وقد حددت سهير نهاية هذا الهدوء . وأنا لا أدرى لماذا تعمد أن يذكرها فى ذلك الوقت .. ؟ .. هل اراد أن يعاقب روز باثارة غيرتها ... ؟ أو انه فهم أننى أحب سهير فأراد أن يثير غيرتى .. ؟ لا أنكر اننى ثرت لذكره سهير ، ولكنى لم اثر لحبى لها ، وانما لأننى احسست بانه يوشك ان يحطم شيئا ما فى نفسى ، شيئا اعتز به أعظم الاعتزاز .. قال ان سهير ستأتى الى العوامة بعد أيام ، ولم يخف ما وراء هذه الزيارة ، بل عمد الى أن يوضحه ، فكان يتكلم فى لهجة المنتصر الذى توصل الى تحقيق اغراضه بكل ما فيها من دناءة .

لم اصدق حرفا واحدا مما قال ، وبرغم هذا كنت ارتجف ، وصرخت فيه بأنه نذل .. يوقع بالبلهاوات ثم يملأه الغرور فيظن أن فى

مقدوره ان يفعل اى شيء .. وتحديته أن يجرؤ على تقبيل قدم سهير ... فصفعنى ... ثم غادر العوامة ، ولحقت به « روز » .

***

بعد ذلك الشجار ، خيم على العوامة جو كئيب مرهق ، فقد انقسمنا على أنفسنا ، أنا واسماعيل فى جانب ، وجميل فى جانب آخر . أما رفاعى فكان أتعسنا جميعا ، اذ لم يكن يعرف الى أى الجانبين ينحاز .

وصمم اسماعيل على أن يطلب من جميل مغادرة العوامة على الفور ، ولكنى عارضت الفكرة ، فلم يكن معقولا أن نضيف الى مشاكل جميل مشكلة جديدة ، وخاصة أنه لم يبق من السنة الدراسية غير أسابيع ، ولم يكن قد بدأ فى مشروعه بعد . ثم أن مجرد التفكير فى طرد زميل يقيم معنا أمر لا يروق لى .

وفى اليوم التالى كنا فى مرسم العوامة مجتمعين نناقش هذا الموضوع ، وكان جميل منعزلا فى حجرته ، ففوجئنا بروز تقتحم المكان فى حالة من الرعب والارتباك ، ثم وقفت فى اعياء تلهث وتسأل عن جميل ، فأشرت الى حجرته .

وبعد قليل سمعنا جميل يصيح ،

ـ ابعدى عنى ... لا تدخلى هنا مرة أخرى .. اذهبى الى حسن افندى ... كفاك صراخا يا مجنونة ..

وكانت روز تصرخ فى هلع ، « سهير مريضة ... ستموت منى ... » وأحسست بقلبى يتفتت وكدت أفقد الوعى ، فاندفعت نحو الحجرة وأنا أتمتم « هذا المجنون ... ألن يقف عند حد . »

ولحق بى اسماعيل فأمسك بى .

وقذف جميل بروز خارج الحجرة ، وأغلق الباب فى عنف ، فاتجهت اليها وسحبتها من ذراعها الى الكنبة حيث راحت تبكى فى عصبية . وتجمع ثلاثتنا حولها ، حتى عادت الى هدوئها ، فرفعت الينا وجهها ارتسمت عليه كل معانى الشقاء ، وهتفت .

ـ ابنتى مريضة يا مصطفى ... أخشى أن تموت .

فقال اسماعيل ، الذى كان لا يقل عنها بؤسا فى تلك اللحظة .

دعيها تموت ... هذا أحسن الف مرة .

فصرخت فيه .

ـ لماذا لا تموت انت ... لماذا لا تموتون جميعا ؟

ثم تابعت بكاءها الصاخب .

وفجأة مد رفاعى يده اليها بورقة مالية قائلا فى صوت مرتجف .

ـ لو تسمحين ياروز ... اقبلى هذا المبلغ ... اشترى به دواء لابنتك . فسددت اليه نظرة قاسية ثم ضربت يده وقالت فى لهجة عنيفة .

ـ اننى لا اتسول فوفر فلوسك ... انه أبوها وهو المسئول عنها ... ثم اندفعت نحو باب الحجرة وراحت تضربه بقبضيتها فى وحشية وهى تصرخ .

ـ افتح ياجميل .. ان سهير ابنتك كما هى ابنتى ... افتح ياجميل .. ان سهير تموت .. انها تموت .. اننى اكرهك .. اكرهك .

وانهارت أمام الباب .. ووقفنا أنا واسماعيل ، نتبادل نظرات قاتمة يائسة ، على حين اتجه رفاعى نحو النافذة المطلة على النيل فوقف ساكنا ... وخيل الى انه يبكى .

***

وسرت معها فى ذلك اليوم حتى بيتها ، ولم نتبادل فى الطريق سوى كلمات قليلة . وكانت تسير متهدلة الذراعين شاردة ، وقد زاغت نظرتها .. ولا تفتأ تقول .

ـ لو ماتت سهير .. فماذا يبقى لى ؟ . لقد تخلى عنى يا مصطفى ... قلت لها فى أسى ..

ـ ان الله موجود ياروز .. انه لم يتخل عنك .

فالقت الى نظرة ذاهلة غامضة ولم تتكلم .

وعند باب العمارة التى تسكنها ، كان البواب متربعا على كنبة خشبية صغيرة ، و فى يده مسبحة ، فما ان رآنا هب واقفا .. ثم تقدم منا وقد ثبت عينيه الطيبتين على روز ، ولم يقل شيئا .

وفتحت روز باب شقتهم بمفتاح كان معها ، فاستقبلنا سكون رطب ثقيل له رائحة . ولم أعتد دخول بيوت غريبة لا أعرف رجلا فيها، لذلك كنت اخطو فى الشقة فى اضطراب وقلق لا ألتفت الى يمين أو الى يسار ، وخيل الى أن « ميمى هانم » ستفاجئنى على قدميها .. فتسخر منى ، مما قد يسبب لى الحرج ، ثم عدت فاستغربت هذا الخيال .. بل لقد فكرت فى أن أذهب اليها بنفسى لأوصيها « بروز » وبابنتها .

ووقفت بى « روز » أمام باب مغلق ، وتطلعت الى بعينين مذعورتين تظللهما الدموع ، ثم ألصقت أذنها بالباب لحظة وقد كتمت أنفاسها ،

ثم فتحت الباب دفعة واحدة . وعلى سرير مضطرب تفوح منه رائحة نتنة ، كانت ترقد كتلة آدمية تافهة ، هشة ، جلد على عظم ، تتردد فيها انفاس واهية .. فارتعش جسدى وحولت بصرى عنها .

وجلست روز على حافة السرير ورفعت تلك الذبالة الانسانية فى لفافتها القذرة ، ومددتها على حجرها ، ولم تكترث لوجودى فأخرجت ثديها ودسته فى فم ابنتها ، فأشـــحت بوجهى عنها ، ورحت أتأمل محتويات الحجرة دون أن أستبين شيئا منها .

وتمتمت روز .

ــ انها ليست جائعة ... مع انها لم تأكل شيئا منذ الصباح .

فقلت فى صوت حبيس .

ــ لا يمكن أن يكون مرضها أمرا طارئا يا روز ... لقد كانت دائما مريضة .. هذا ظاهر من حالتها .

ــ وماذا كان يدرينى أنها مريضة ؟

وحملقت فى وجه ابنتها برهة ثم قالت .

ــ كانت تبتسم عنــدما أداعبهــا .. بل لقد كانت تقهقة عندما « أزغزغها » . فلم أكن أتصـــور انها مريضة ... هل ســـتموت يا يا مصطفى ... ؟

هل تعتقد أنها ستموت ... ؟

قلت وأنا أعلم أنى أكذب .

ــ اذا ضاعفت أهتمامك بها ... فلن تموت .

كانت ثورتها قد استحالت الى ذهول، وشعت عيناها برعب صامت وحيرة ليس لها من قرار ، ودموعها تنساب فى صمت وبلا توقف فتبلل خديها الشاحبين .. كان فى هدوئها الحزين استسلام لقوة غـــريبة لا تراها ولا تعرف كنهها ، وفى نظرتها المختلجة المتهافتة صرخة مكتومة هى تعبير عن عجز مطلق .. عجز نملة تحت قدم عملاق . واطلقت تنهيدة من الاعماق وقالت فى صوت خافت كنت اسمعه بصعوبة :

ــ انه لم يرها غير مرة واحدة .. لم يكن يحبها .. عندما كان يقول لى ان اباه لا يحبه كنت لا أصدقه .. لم أكن اصدق أن آبا يكره ابنه ، ولكننى اخيرا صدقته ، فهو لا يحب ابنته ، ولا يحبنى ، لم يحبنا ابدا .. لقد أصبحنا ، أنا وابنتى ، وحيدتين .. واذا ماتت فسأبقى وحدى .. كان جميل كل شىء بالنسبة الينا .. كل شىء .

وقلت وأنا اغالب دموعى .

ــ ان رحمة الله واسعة ياروز .. فكفى عن البكاء .

ــ اذا ماتت ابنتى .. فهل يردها الله لى .. ؟

ــ لا .. ولكنه سيعوضك عنها ... ولن يدعك وحيدة .

ــ هل سيرد لى جميل . ؟

ــ لو كان الله يحبك ... فلن يردك الى جميل .

ــ سأبقى وحيدة اذن .

ــ الا اذا آمنت بوجـــود الله .. فلن تكونى وحيدة أبدا .. الا تؤمنين بالله ياروز .. ؟

ــ لا أدرى ... لا أدرى .

ــ جربى اذن أن تؤمنى به .

عندما كان جميل يتحدث عن روز قبل أن نراها ، وبعد أن رأيناها، كان يروى عنها أمورا لا نصدقها ، وكان مما قاله عنها أنها لا تؤمن بشيء ، ولا تدين بأى دين وقد روت لى بنفسها بعد ذلك قصة حياتها، وقصة علاقتها بجميل ، فلم يخامرنى الشـــك فى أن جميل هو الذى انتزع من نفسها فتات الايمان الذى كان من الطبيعى أن يعلق بها . كان يعمل فأسه فى أرض رخوة ،فلم يترك شبرا منها على حاله ، ثم زرعها أشواكا ..

اخرجت من جيبى كل ما كان فيه من نقود ، وكانت قليلة ، فوضعتها على السرير ، وقلت .

ــ أرجوك يا روز...اقبلى هذا المبلغ قرضا منى ... وسأسترده منك يوما ما لا ترفضى فابنتك فى حاجة الى طبيب ودواء .

ــ لقد عرضتها على الطبيب ... بخمسين قرشا اختلستها من العجوز .

ــ والدواء ... ؟ هذا المبلغ للدواء .. انه لا يكفى ، وسآتيك غدا بمبلغ آخر .. ارجوك لا تعترضى ..

وارتفع صوت نسائى جاف من ناحية ما بالشقة ، ينادى روز فى عصبية ، فقالت روز .

ــ انها المشلولة .. لا أفهم لم لا تموت هذه المشلولة .. اليست ابنتى أولى بأن تعيش ..

***

وعند اسفل سلم العمارة التقيت « بعم جابر البواب » فتركت

له عنوان العوامة وطلبت منه أن يخبرنى اذا ماتت ابنة روز ، فأبدى الرجل استعداد طيبا ، وقال وهو يلوح بمسبحته فى وجهى .

ــ بس مش حرام كده .. فيه راجل يسيب مراته وبنته بالشكل ده .. ؟

فتأملت الوجه الطيب الغاضب ثم قلت :

ــ عندك حق ياعم جابر ... عندك حق .

***

مرت العوامة بعد ذلك بأيام غامضة غـارقة فى الحزن ، ولاحت فى وجوهنا جميعا ظلال ثقيلة للاسى لم نكن نناقشها وكأنها امر مسلم متفق عليه بيننا . وخفتت الاصوات حتى كادت تتلاشى ، بل لقد تلاشت بالفعل ضحكات رفاعى وصار أكثرنا صمتا ، وأعمقنا سكونا ــ وفقدت فرشاة اسماعيل الكثير من حماسها وان لم تتوقف ، على حين انصرفت أنا كلية عن مشروعى لما كنت أحسه من صداع متصل واجهاد مستمر .

كانت تلك الايام هى الايام الاخيرة من شهر مايو .. ونوافذ العوامة كلها مفتوحة عن آخرها التماسا لنسمات من الهواء قد تلطف من حـدة الاستياء الصامت الذى كان مطبقا على قلب العوامة ، ولطمات المياه فى أسفل العوامة باتت ، بانتظامها ، وخريرها الدائم تثير السأم .

ولم تعد روز تظهر فى العوامـة ، فكنت اتردد عليها يوما فيـوما ، وأتابع حالتها وهى تزداد سوءا ساعة بعد ساعة . وقد ذكرت لى فى أحد تلك الايام أنها أرسلت خطابا الى جد ابنتها ، والد جميل ، تحكى له كل شيء ، وتطلب منه العون حتى تستطيع أن ترد لى ما أقرضتها ، فأذهلنى ماسمعت ، ورحت أبين لها مافى تصرفها من نزق فلم ترد على الا بالبكاء والزفرات .

ودخلت حجرة « ميمى هانم » مرة ، فألفيتها ممددة فى سريرها ، فاستقبلتنى بابتسامة غامضة ، وقالت .

ــ صديق جديد لها ... هه ؟.. والله عال .. نفس الحكاية .. واحد .. ثم واحد .. ثم كثيرون .. نفس الحكاية .

ولم أفهم ماتعنيه ، فقلت فى خجل .

ــ ان البنت ستموت حتما .

فقفزت الى وجهها علامات اشمئزاز غريبة ، وهتفت فى غيظ :

ــ فلترحل .. لعنة الله عليها وعلى أبيهـا .. وما الذى دعـاها

للمجيء .. ؟ ثم تبدلت ملامحها مرةأخرى ، وقالت وقد عادت الىشفتيها ابتسامتها المربكة .

ــ انما قل لى .. كيف استطعت أن توقع بها .. هه ..؟ هل كانت تزورك فى شقتك انت ايضا ..؟

واحسست بالضيق ؛ ووقفت أعصر راحتى فى قلق ، وقلت لها وانا انتزع الكلمات من بين أسنانى .

ــ لقد اسأت فهمى ... بالتأكيد .

ــ اهيه .. وهل هذا معقول .. انما يبدو انك ابن حلال ..أحسن من ابن الـ .. على الاقل .. ولكنى لاأفهم لماذا تصر هذه المغفلة على كراهية حسن افندى ... اليس رجلا كبقية الرجال ؟. المبيطة .. لايعجبها غير التلاميذ .. السبت تلميذا « يا اسمك ايه ..؟ »

ولم أفلح فى كتمان امتعاضى ، وانسحبت على الفور .

***

وفى الصباح المبكر من آخر أيام شهر مايو سمعت طرقا ببابنا ففتحته ، واذ بى أفاجأ بروز تقف أمامى فى جمود ، جافة ذابلة ، مهملة الثياب ، مضطربة الشعر . تنفذ من عينيها المحمرتين المرهقتين نظرة قاسية ثابتة ، فهتفت .

ــ مالك ياروز ؟

فلم تجبنى ولم تحرك شفتيها بكلمة ، انما مرقت من جانبى كالظل ، فانفجرت فى رأسى فكرة واحدة مؤلمة ، ولكنى لم أجد الكلمة التى أتفوه بها ، أو لم استطع تفوهها .. فاكتفيت بأن تبعتها .

وكان جميل فى حجرته يرتدى ثيابه استعدادا للخروج ، فبوغت بها تقف على قيد خطوة منه ، ولكنه مالبث أن صرف اهتمامه الى حذائه يعقد رباطه .

ومرت ثوان وروز تقف فى هدوئها الغامض الكئيب ، ثم قالت فى صوت مرتعش خفيض .

ــ سهير .. ماتت ياجميل .

فرفع وجهه اليها وحملق برهة ، ثم انحنى على قدمه الاخرى ، فأطلقت روز صرخة عالية ؛ وهى تمط رقبتها وتضرب الارض بقدمها .

ــ سهير ماتت .. ألم تسمع ؟

ثم خيم الصمت ، ونهض جميل فتمطى فى هدوء مثير ، ثم انحنى

فدفع يده تحت سرير رفاعى وجذب قطعة من « التوال » ــ وهو نوع من قماش غليظ نستعمله للرسم ــ ومدها اليها قائلا .

ــ خذى هذه .. فكفنيها بها .

كنت أقف عند باب الحجرة أرقب الموقف وأنا أغلى ، ولا أستطيع أن أصور لك المشاعر التى حلت بى فى تلك اللحظة . ومهما كانت الافكار التى راودتنى حينذاك ، فاننى لم أكن لاقدر على التعبير عملا عن تلك المشاعر بالصورة الصادقة العميقة التى عبرت روز بها عن مشاعرها ولا أظنها كانت تختلف عن مشاعرى .

أحنت راسها فتأملت قطعة التوال التى كانت بيده ، ورفعت عينيها اليه ، ثم اندفعت فى حركة مفاجئة فضربت أظافرها فى وجهه ، وراحت تضرب صدره بقبضتيها الجافتين وهى تصرخ بكلمات مختلطة ، فيها سباب بشع وعبارة كانت تكررها بغير وعى .

« ابنتى ماتت .. ابنتى ماتت .. »

وكان رفاعى قد استيقظ من نومه ، وتكور على سريره وراح يتابع مايحدث فى استغراق . كما استيقظ اسماعيل واقبل مهرولا ، حافى القدمين فوقف بجانبى ، وقال وهو يصر على اسنانه .

ــ والله لو مد يده اليها ... فلأحطمن وجهه القذر .

والغريب ، أن جميلا لم يحرك يدا ليردها عنه ، ولم يفتح فمه ، حتى استنفذت كل قواها فى ثوان ، فسقطت على ركبتيها ، والقت رأسها على السرير ، وضاعت بكيانها كله فى دوامة من البكاء .

واستبدل جميل بقميصه الممزق قميصا آخر ، وغادر العوامة فى خطوات سريعة .

***

واشتركنا نحن الثلاثة ، اسماعيل ورفاعى وأنا ، فى دفن الطفلة الميتة ، وكذلك اشترك معنا جابر البواب ، وامرأة طيبة تدعى « عزيزة » يبدو أنها « غسالة » العجوز ، وهى التى قامت بتغسيل الطفلة وتكفينها .

وعند عودتنا من المقبرة مررنا بروز فألفيناها منطوية على نفسها فى ركن من سريرها تنتحب ، فحاولنا أن نسرى عنها بكلمات اغلب الظن انها لم تسمعها . وكان اسماعيل قد تسلم مبلغا من النقود من أسرته فترك لها جزءا منه على سريرها ، ثم انصرفنا .

وقطعنا الطريق الى العوامة سيرا على الاقدام ، وكان رفاعى صامتا معظم الوقت ، موزع البصر والفكر . وقبل ان نضع أقدامنا على السقالة لنعبرها الى العوامة ، قال رفاعى بغير تمهيد سابق .

ـ سأسافر اليوم الى البلد .. ولن أعود قبل ليلة الامتحان .. لم أعد أطيق هذه العوامة القذرة .. ولا أدرى كيف أمضيت بها ثلاث سنوات ... لم أعد أطيقها بالمرة . ولم يضع وقتا فى التفكير ، بل شرع بجمع ثيابه وأوراقه يكدسها فى حقيبته حيثما اتفق ، حتى اذا انتهى من ذلك التفت الينا وقال :

ـ ان وجودى فى البلد سيساعدنى حتما على التفكير فى مشروع .. حقيقة أن الوقت فاتنى .. ولكن أمامى فرصة أخرى فى يناير .. ويناير ليس ببعيد .. فالايام تمر كما ترون فى سرعة غريبة .. من يصدق أن السنة مرت بأكملها .. لقد مرت وكأنها اسبوع .

ثم كف عن الكلام وبقى دقيقة صامتا .. ثم صافحنا ومضى .

* * *

وصعدت الياصاحبة العوامة ، فأجالت بصرهابينى وبين اسماعيل ثم قالت :

ـ ماذا كان يجرى عندكم فى الصباح ... ما الحكاية... الا تكفون عن الشجار أبدا ..؟ الناس تصبح تقول .

فقاطعها اسماعيل فى احتداد .

ـ الا يمكن أن تتركينا وشأننا ..؟

ـ كفا الله الشر ياسى اسماعيل ... ماذا حدث .. ماذا حدث ياسى مصطفى ..؟

ـ لقد ماتت سهير .

فشهقت وصكت صدرها ، ثم سألت :

ـ لا ياشيخ ... ومن هى سهير ...؟

فقلت ..

ـ ابنة روز .

فسكتت لحظة تفكر ، ومصمصت بشفتيها ، ثم قالت :

ـ والله بركة .. أليس هذا أفضل ..؟ لقد أراحها الله منها .. عن اذنكم .. الأكل على النار .

وعدت الى زيارة روز فى مساء ذلك اليوم وكان معى اسماعيل ، ثم زرناها معا فى مساء اليوم التالى ، فكنا نجد « عزيزة » معها فى كل مرة ، فقد تركت بيتها واولادها وربطت نفسها اليها فلم تعد تتركها ساعة واحدة .

وكانت روز قد بدأ عليها الانهيار بشكل ظاهر ، وألقت بنفسها فى احضان صمت عميق مبهم ، فقد كانت ترزح تحت احساس هائل ، غير عادى بالفجيعة ، ولا أدرى فيمن كانت فجيعتها اكبر ..؟؟.. هل فى جميل الذى قذف بها من حياته ؟ أو فى ابنتها التى انتزعها منها الموت .؟

كانت أحزانها قد ألجمتها ، فزمت شفتيها فى قسوة ، ورسمت على جانبى فمها خطين غائرين يفصحان عن مرارة ومقت شديدين . ولم تعد تنطق الا بكلمات قلائل متقطعة كانت تخرج من بين شفتيها كالفحيح، وجفت دموعها تماما ، فلم تعد تبكى .. وشغلت عما حولها بأفكارها ، التى لم تكن تبين عنها .. فكنا نظل الى جانبها فى حيرة حتى نتركها .

وكنت أشاركها كل ماتحس من الم ، ولا أظن أن اسماعيل كان يختلف عنى ، ولو أننا كنا نحس ارتياحا الى موت الطفلة ، الا أننا لم نكن نرتاح الى ماصارت اليه روز ، فوددنا لو لم تمت الطفلة على الاقل .

وكان من بين الكلمات القليلة التى تفوهت بها روز فى زيارتناالثانية ماقالته بمجرد أن وقع بصرها علينا ... « هل اتى جميل معكم ..؟ »

وقالت فى ذلك اليوم أيضا موجهة حديثها الى :

ــ لقد كنت تقول دائما اننى بلهاء ... أنا بلهاء فعلا ... ولكن ما حيلتى وأنا وحيدة يامصطفى ؟.

وكان آخر ما سمعته منها ، « كنت أحلم ببيت يضم ثلاثتنا .. هو وسهير وانا .. كم أنا بلهاء .. »

كانت الايام الاخيرة من السنة الدراسية تنزاح يوما فيوما ، وكنت أتعجل نهايتها ، فقد اصبح منظر الكلية ومنظر العوامة مرتبطين فى ذهنى بجميل وروز ، وسهير الصغيرة والمقبرة القاتمة المغبرة .. وبكل ماتحمل قلبى من الم خلال سنتين كاملتين .

لم يبق على موعد الامتحانات غير ايام ، ومن ثم فقد ركن الطلبةالى الهدوء ، ولم يعد تهريجهم ليتعدى عبارات مالوفة لامعنى لها يتداولونها فيما بينهم كقطع العملة البرنزية الممسوحة ..

والتقيت بسهير عند مدخل الكلية ذات صباح ، وكان قد مضى أكثر

من أسبوع دون أن أراها ، فتراءى لى أن اقص عليها كل ما أعـرفه عن جميل وسهير الصغيرةالتى ماتت وقمنابدفنها منذ أيام ، وقطعة «التوال» التى مدها الى روز . ولكنها كانت تسأل عن جميل وهى تبتسم .. كانت مشرقة كعادتها ، رقيقة كعهدى بها ، تبدو فى ثيابها البيضاء الناصـعة الانيقة خليقة بألا تسمع شيئا عن زبالة الاحداث التى تكدست بين جنبات العوامة . فالناس مختلفون ، وسهير مختلفة عنا بالتأكيد ، ولو علمت بما كان يجرى ولايزال يجرى فى العوامة لما شككت فى أنها ستمضى شهرا على الاقل تعانى حالة من الغثيان .

واسقط فى يدى ولم أعرف ماذا اقول ، فقد كانت أفكارى فىاتجاه على حين يجرى حديثها فى اتجاه آخر .

ـ هل انتهيت من مشروعك ؟

ـ لا .. لم أنته ..

ـ « واسمه ايه » ... اسماعيل .. هل انتهى ؟

ـ أمامه قطعتان فيما أظن .

ـ لماذا اختار موضوع « عمال البناء » بالذات .. ان جميل يقول ان هذا أوفر له ماليا لان أجر الموديلات مرتفع .. هل هو فقير جدا ..؟

ـ ليس هذا هو السبب ..

ـ ما رايك فى مشروع جميل ؟

ـ اى مشروع ؟

ـ كيف لاتعلم وهو يقيم معكم ... لقد اختار موضوعا رائعا .. « العالم المرفوض » انه يحدثنى عنه منذ اسبوع .

ـ تقولين « العالم المرفوض » . ؟

كذبة جديدة اخترعها ، ولكنها سخيفة ، فأى عالم مرفوض هـذا الذى حدثها عنه ..؟

وكدت أفتح فمي لأتقيأ كلاما شاذا عن عالمه القذر ، ولكنها انصرفت عنى بنظرها ثم هتفت .

ـ هاهو جميل .. انه يبدو أصغر سنا بقميصه المخطط .

وكشفت عن اسنانها الصغيرة بضحكة صافية كقلبها .. فتركتها وابتعدت قبل أن يصل جميل .

وفى ظهر ذلك اليوم عدت الى العوامة بصحبة اسماعيل ففوجئنـا

بجميل وقد سبقنا اليها ، وكان مضطربا أشد الاضطراب ، ولكنه افتعل الهدوء بمجرد أن رآنا .

كنا متقاطعين منذ أن صفعني ، لانتبادل حديثا ، ولا نلتقى فى مكان ، لذلك فقد دهشت اذ رأيته يتقدم منى وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة مرسومة ، ودهشت أكثر عندما ألقى عند قدمى منديلا نسائيا صغيرا وهو يقول فى لهجة شريرة .

ـ أرجو أن ترد هذا المنديل الى صاحبته .. سهير .. فقد نسيته هنا .

فألقيت نظرة سريعة الى المنديل ، ثم صحت :

ـ كاذب .

ولا أذكر ماذا قال بعد ذلك ، كما لا أذكر ما قلت ، ولكن حركاته الهادئة الهازئة ، لم تدع لى مجالا للشك فى أن « سهير » كانت فى العوامة بالفعل ... وقد تأكد لى ذلك عندما أمسكت بالمنديل ، فقد كان يفوح منه عطرها .

أما ماحدث بينهما فى العوامة ـ فى غيبتنا ـ فهذا ماكان واضحا ، فلقد أقسم مرات ومرات أن يأتى بها لغرض واحد كنت أتحداه أن يبلغه ، أو أن يبلغ ما هو أقل منه الف مرة .. أما وأنها قد دخلت هذه العوامة ، فلاشك أنه حقق أغراضه . والا فما معنى مجيئها .. ؟ ولماذا قبلت الحضور الى العوامة فى غيبتنا وفى وقت لايتوقع وجودنا فيه .؟ ثم لماذا لم تذكر لى أنها ستزور العوامة فى ذلك الصباح ؟.

ولا ادرى ما اذا كنت أكبرت رأى جميل فى الناس أم استصغرت نفسى ..؟ لقد كان يقول دائما ، ان مايظهر من الناس ليس هو الحقيقة ... وان الحقيقة تختفى الا عن ذوى النظر البعيد ، وهو منهم .. كل النساء فى نظره تافهات خائنات ، ولم يكن ليستثنى امراة واحدة ، فكان يتكلم عن امراة أبيه بلهجة من يحمل عنها سرا ... واذا تكلم عن أمه قال ... « ومايدرينى » .. أما عن « سهير » فقد كانت له عبارة لاتتغير « لايغرك مظهرها » ..

كنت أراه مخرفا ، منحرفا ، تعسا ، ولكنى بعد حادث المنديل ـ صرت أتعس الناس جميعا . فقد تبينت لى سذاجتى فى صورة جعلتنى أمقت نفسى وأسخر منها .. كنت أتعلق بخيوط تافهة ، أوهى من خيوط العنكبوت .. وأدافع عن أشياء لا وجود لها . امراة متزوجة ، متعلمة ، تخطىء ببساطة مع شاب تافه لا اخلاق له .. مهزلة كبرى يندى لها الجبين .

وأحسست بالاشفاق على روز ، فقد كانت وحيدة على الاقل ، بلهاء .. مجرد طفلة .

وأجلت بصرى بين ماكنت قد أنهيته من لوحات مشروعى ، فشعرت باشمئزاز لكل لمسة من لمساتى فيها ، ظلال تافهة لاتعبر عن شيء ، أو تعبر عن شيء لاوجود له .. وهالنى أنى كنت أصدق كل ما أراه ، وأنفعل بكل ما أسمع .. وفهمت جانب الصدق فيما كان جميل يردد من أفكار سمجة مدمرة ، فالضوء وحده لايكفى لنعرف حقيقة الاشياء طالما أن الظلال تخفى الجانب الآخر .

***

لو قلت انى فقدت حماسى بالنسبة لمشروع « المعذبات » فاننى لن أصور الحقيقة ، فالحقيقة أنى كرهت هذا المشروع ، واستسخفته ، وصارت فكرته تثير فى نفسى الخجل ، فهو مشروع ساذج لشخص غير ذى خبرة بالناس ، سطحى ، بعيد عن حقائق الاشياء . ودهش اسماعيل لما لحقنى من تغير ، وحاول أن يرضينى بكلمات لم أستسغها فلم أعد ساذجا لارضى بكلمات الترضية الجوفاء .

قال لى ..

ــ هل يمكن أن يكون قد كسب موقعته معك ؟.

فأجبته .

ــ انه لم يكسبها ... ولكننى سلمت له ..

ــ وما الفرق ... انه فى الحالين المنتصر .. وهو لم يهدف الا الى تدميرك ..

ــ لقد نبهنى الى غبائى .

ــ انك الآن غبى اذ تتصور انه على حق .

ــ ومتى كنت أنا على حق .. ؟!

ــ لقد كنت دائما على حق ... منتهى الحق ..

ــ انك ترضيننى ..

ــ لست امرأة لأطلب رضاك ..

ــ لا تذكرنى بالنساء فاننى أصبحت أكرههن ... كلهن خائنات تافهات ..

ــ درس طيب من جميل .

ــ يبعن أعراضهن لقاء قروش ، ثم يلتمسن العذر .. كم كنت غبيا .. ؟

ـ هل كل هذا من أجل منديل قد لايكون منديلها ؟.

ـ كيف لايكون منديلها وقد كانت هنا ..؟ ألم تسمع ماقالته الست لواحظ ..

ـ ومشروعك ... ما ذنبه ..؟

ـ مشروع غث .. يقوم على أكذوبة .. بل مجموعة من الاكاذيب.

ـ يكفى أنك كنت تؤمن به كحقيقة ، ففرشاتك فيه تعبر فى صدق عن احساس صادق .

ـ ومن أخدع به ؟ .. نفسى أو المحكمين ..؟

❋❋❋

وتملكتنى رغبة غريبة فى أن ألتقى بسهير فأدمى كبرياءها المصطنع ، وأهدم مظهرها الرومانتيكى السخيف ... كنت أريد أن أراها بعد أن عرفت الحقيقة عنها ، لأجدد نظرتى اليها .. فقد كانت لاتزال ملتصقة بذهنى بصورتها البريئة النقية الرقيقة التى تقطر وداعة .

بحثت عنها فى الكلية فى اليوم التالى وفى الأيام التالية ، فلم أعثر لها على أثر ، حتى كان اليوم الاول للامتحانات .. فانتظرت امام الكلية حتى خرجت ، وكانت تسيربمفردها بفستانهاالابيض النظيف ..ووجهها الذى لم يتخل عن اشراقته ، وكبريائه ، وشعرها الناعم الوديع المنظم وكأنه لم تعبث به يد عابث .. فلعنت نساء العالم بلا استثناء .. تقدمت منها ولم أحيها ، فبدا عليها الارتباك ، وابتسمت ساخرا وقلت :

ـ لقد افتقدناك طويلا ... لماذا اختفيت فجأة ؟

فوجمت قليلا ، ثم قالت متلعثمة .

ـ كنت مريضة .. كما كنت أستعد للامتحان .

ـ حقا .. لعلك أحسنت الاستعداد ..

فافتعلت ضحكة قصيرة وقالت :

ـ بقدر ما استطعت ..

وازدردت ريقى مرتين ثم قلت وانا أدقق النظر فى وجهها .

ـ ألم ترى « جميل » ..؟ اننى ابحث عنه .

وحاولت أن أجد مزيدا من الكلام لانسيها سؤالى فأعفيها من الاجابة عليه ، ولكن انقلاب سحنتها الجم لسانى ، فقد اكتسى وجهها بانفعال غريب لم أفهمه ، وعضت شفتها ، وأشاحت بوجهها ولم تتكلم . فوضعت

يدى فى جيبى استعدادا للضربة التالية ، ثم قلت وانا أمد منديلها اليهـا بأصابع مرتعشة ، وقلبى يخفق فى عنف .

ــ هل هذا منديلك ..؟

وكانت ذكية فلم تستغرق وقتا ، ولم تكن فى حاجة الى تأمل طويل لتفهم مايدور بخلدى . فقد القت نظرة الى المنديل ، ثم قالت فى هدوء .

ــ وبعد .. حدثنى بصراحة .. ماذا فهمت من عثورك على هذا المنديل ؟ فقلت وانا احس بتضاؤلى أمامها .

ــ اننى لم أعثر عليه .. ولكن جميلا هو الذى سلمه الى ..

وتناولت منديلها وسكتت برهة ، ثم سألت .

ــ ولماذا .. سلمه لك .. ؟

ــ لا ادرى .. لعله أراد أن يغيظنى .

ــ يغيظك ؟!.. اننى لا أفهمك .. ولا افهمكم جميعـا .. فكلكم معقدون .. شواذ .. كيف يغيظك بمنديلى .؟

لعنت نفسى ، وفكرت فى الفرار ، غير أنها عاجلتنى بسؤال القتـه فى حدة .

ــ ماذا قال لك جميل عنى ... ماذا قال لك .. يجب أن اعرف؟.

فأطرقت براسى ورحت أتأمل الارض ، وتشاغلت عنها بورقة شجر خضراء كانت عند قدمى .. ولم أجبها .. فعادت تسأل فى ذعر .

ــ ماذا قال .. ارجوك يامصطفى ؟

وحاولت أن أذكر ماقاله على وجه التحديد ، ولكنى ــ وهذا هـو الغريب حقا ــ لم اتذكر كلمة واحدة تسىء اليها .. فلقد كانت طريقته فى الكلام عنها ، وحركاته وهو يقذف بالمنديل ثم وهو يعلق عليه .. هو الذى اوحى الى بكل شىء . ذهلت ، ولم اعد أجـد ما أقـوله ، فلما كـررت سؤالها لم أجد أمامى الا ان أقول .

ــ صدقينى .. لقد كان دائما يقول انه سيستدرجك الى العوامة .. ففاجأنى بأنه فعلها ..

ــ وقال لك انه بلغ مأربه ..

ــ لم أفهم هذا وحدى ..

فشهقت ، وكتمت صرخة كادت تنفلت من فمها ، وانفجرت باكية ، ثم قالت من بين دموعها .

ــ التافه ... القذر ... لابد أنه قال نفس الشيء لكل من يتصل به لقد فضحني .

وراحت تقسم أن شيئا لم يحدث بينهما ، وان كل ما حدث هو أنه أوهمها بأنه أعد مشروعه ، وأنه يريد أن يسمع رأيها فيه ، ولقد حــاول أسبوعا بأكمله أن يقنعها بزيارة العوامة لهذا السبب . ونظرا لثقتها فيه ولانها لم تكن تتصور أن يخفي غرضا آخر ، فلقد قبلت في النهاية .

وفي العوامة فوجئت به يحاول تقبيلها ، فذهلت ، وأربكتها المفاجأة ولكنها سرعان ما أجابته بصفعة على وجهه ، ثم فرت هاربة من العوامة .. وبعد أن انتهت من قصتها راحت تجفف دموعها ، وسألتني ؟

ــ هل تصدقني يامصطفى ..؟ ألا تصدقني .. ؟

فقلت وأنا أحس بتخاذل شديد .

ــ صدقيني ... أنا تائه .. لا أعرف ما أصدق .. ومالا اصدق.

فصرخت .

ــ أنت لاتصدقني .. فهل تصدق هذا المجنون .. ؟

ــ لا أدري .. فأنا تائه كما قلت لك ..

وتركتها ومضيت ، أجرجر قدمي في اعياء ، واعصر جبهتي وأسأل نفسي .. « كيف أكون غبيا الى هذا الحد .. »

***

وبحثت عن اسماعيل فرويت له كل مادار بيني وبينها .. فــكان رأيه أنها على حق ، وكان هــذا هو رأيي أيضـــا ، ولكني كنت أخشى أن أواجه نفسي به ، فقد روعتني الصدمة التي ســببتها لهــا ، ومزقتني دموعها ، ودمرني احساس بالتفاهة لاحد له ..

لو ظللت على اعتقادي بأن سهيرا آثمة ولم أواجهها ، لكان ذلك أرحم بكثير مما أصبحت أعانيه بعــد أن واجهتها بصــفاقتي المنقطعة النظير . فعندما صدقت ماقاله جميل عنها ، أو ما أوحى به الى ظننت في نفسي السطحية والسذاجة ، أما بعد أن واجهتها وثبت لى براءتها ، فقد آمنت بأني غارق في السطحية والسذاجة والغباء ..

وبحثت عن سهير في اليوم التالي لاعتذر اليها ، ولكني لم أوفق الى

الالتقاء بها ، فأعدت الكرة فى اليوم الثالث ، فلم أوفق أيضا ، ولكنى التقيت بصديقتها « نادية » فسألتها عنها ، فقالت لى بالحرف الواحد .

ــ لقد قررت الانقطاع عن الكلية .. ووافقها زوجها .. لا أدرى لماذا ؟ .. ولكنها بكت وهى تعلن الى هذا القرار .. فهى تقول انهـــا لاتصلح لهذا النوع من الدراسة .. وانها تكره الكلية ولا ترى داعيـــا لمتابعة الامتحان . واعتقد أنها مريضة .

ولم أقف لأسمع المزيد ، بل ابتعدت عنها ، وتركت على شفتيها كلمات لم تقلها .. ورحت أجوب شوارع الزمالك بغير هدف ، حتى اذا ما وصلت الى العوامة ، مزقت كل لوحاتى وبصقت على مافيها من أفكار ساذجة رخيصة ، لاتقل شناعة عن أفكار جميل .

فاذا كان لابد من مشروع فلن يكون عن أوهام هى من خلق سذاجتى بل سيكون عن شىء أراه ويراه كل الناس ، سأستمده من الحقيقة أيا كان طعمها ، لا كما أتوهمها ، بل كما يحياها الناس ..

وقد انتهت الامتحانات اليوم وسأسافر غدا الى البلد ، لاســتعد لمشروعى الجديد هناك ، ولن اتقــدم به فى أغسطس ، بل ســأؤجله الى يناير . ويناير ليس ببعيد .. وقد يكون مشروعى الجديد عن «الفلاحين» .. فهو أقرب الى قلبى مما عداه .

القسم الثالث

حكاية روز



قلت لى ان جميل حكى لك عنى ، كما حكى لك مصطفى .. فماذا تريد أن تسمع منى ...؟ .. لابد أن جميل كان يتكلم عنى وهو سعيد ، فأنا الآن افهم لماذا كان يعذبنى ... لأنه كان يجد فى تعذيبى سعادته هل انا مخطئة .؟

* * *

كان يجد سعادته فى تعذيبى والا لما عذبنى ، فلم أكن أفعل مايغضبه ولم أكن أكف ابدا عن حبه ، وكان هو كل شيء فى حياتى ، وفى حياة سهير ابنتى .. التى ماتت ... هل حكى لك عنها ..؟

أما اليوم وهو لايرانى ، وقد كرهته ، وقد تخلى عنى .. فكيف يجد سعادته اذا لم يتكلم عنى ... ولابد أنه كان يذكرنى وهو يضحك ، فأنا أعرف الآن أنى كنت مضحكة ... كنت بلهاء ..

* * *

كنت قبل أن ارى « جميل » اكره «المشلولة» ، ولم يكن أمامى غيرها ، فكنت فى حاجة الى شخص آخر أتكلم معه من غير أن أكرهه ... فكيف أستطيع أن أعيش فى زعيق وسباب ، واذا تكلمت فلكى أعاند واغيظ ...؟

كنت فى حاجة الى انسان اكلمه كما يتكلم الناس ، دون زعيق وسباب وعناد ، وأضحك معه ..

كانت فى الشقة المجاورة لشقتنا عائلة محترمة لهم ابنة فى سنى ، صغيرة .. منذ اربع سنوات او خمس .. لا اذكر .. وكانت هذه البنت تغيظنى ، وكانت متكبرة تعاملنى كأنى خادمة ، وتتعمد أن تتباهى أمامى بفساتينها التى كان يشتريها لها أبوها فكنت لا احبها .

ومرة كنت فى الشرفة وكانت هى فى شرفتهم ، ورأيت اباها يقبلها كان يوم عيد ميلادها ، وكان أبوها سعيدا بها ، ولم تدعنى لحفلتها ، ولم يكن يهمنى أن أحضر هذه الحفلة ، وحتى لو دعتنى لما ذهبت اليها ، فقد كنت أكرهها ، فلما رأيت اباها يقبلها كرهت اباها ايضا ، وجريت الى سريرى ، ورحت أبكى .

تصور ، أن المشلولة لم تكن تقبلنى أبدا .. ومرة قبلتنى مدرسة الفصل وأنا تلميذه ، فلما بعــدت عنى ، جلست مكانى ورحت أبكى ، ولا أعرف لماذا قبلتنى ..؟ أو لماذا بكيت ؟

وحتى « عزيزة » خادمتنا ، وهى الوحيدة التى كنت أحبها ، لم تكن تقبلنى .. وكنت كثيرا ما أقبلها .. فكانت « المشلولة » تقول « هذه البنت شاذة والله كيف تقبلك ياعزيزة بهذا الشكل ؟ الظاهر انها أصبحت فى السن « اياه » فلم أكن أفهم ماذا تعنى « بشاذة » ولا « بالسن اياه ».

ولما تخلصت المشلولة من « عزيزة » ، بكيت كثيرا من اجلها ، معانها لم تكن تقيم معنا ، بل كانت تقضى النهار عندنا ، ثم تعود فى المساء الى بيتها ، وبخروج «عزيزة» احسست بالوحدة ، كنت وحيدة ، وكنتاوشك أن اجن ، فكنت أكلم نفسى احيانا ، ولم أكن أرتاح الا عندما تأتى عزيزة يوم الثلاثاء لتغسل ..

وعندما سكن « جميل » معنا فرحت ، ولكنه لم يكن يكلمنى بل كان يعاملنى كخادمة .. فلم أكرهه .. ولماذا اكــرهه ..؟.. كان يضحكنى عندما ينادينى « رز » .. وعندما يدخل الحمام حافيا ويخرج منه حافيا وعندما يغطى وجهه بالصابون « ليحلق ذقنه » .

والحقيقة انى أحببته ، وقد أحببته يوم أن سمعته يقول للمشلولة « كلما نظرت الى صورة المرحوم » محفوظ بك « تأكــد لى أنه لم يكن عاقلا .. » فقد ضحكت حتى كدت أقع ، فسألنى .

ــ لماذا تضحكين « يارز » .

فلم أرد عليه وانما أحسست برغبة فى أن اقبله ، ثم احسست بأنى احبه..

***

وقد كنت فى منتهى سعادتى عندما طلب منى جميل ، لاول مرة ، أن يرسم لى صورة .. اذ كنت اتمنى أن أجلس معه نتكلم ، وانظر اليه وهو يرسم ، وأعرف كيف يرسم ، وأضحك معه ، ولكننى خشيت أن يطلب منى أن أقف أمامه عارية ليرسمنى ، مثل الصــورة التى كنت أراها فى حجرته ، ولا أدرى لماذا كنت أخشى « هــذه المسألة » ؟.. ولكنــه كان لطيفا ... فلم يفكر فى أن يرسمنى عارية .

وقد احببته اكثر عندماسألنى وهويرسمنى ، اسئلة كثيرة ، جعلنى بها اتكلم كما يتكلم الناس الآخرون ، وأضحك .. وكانت الصورة التى

رسمها لى جميلة لدرجة اننى لم أصدق انها صورتى ، وانه هو الذى رسمها ، فهو فنان عظيم ، ولكننى لا ادرى لماذا كان يعذبنى ؟.

يوم أن انتهى من رسمى ، ووقفت اتأمل صورتى تمنيت لو قبلته .. ولا أعلم كيف عرف أننى اريد أن اقبله فقد فوجئت به يقبلنى .

كانت قبلته مختلفة عن قبلة المدرسة ، وعن قبلاتى لعزيزة ، فقد جعلتنى أرتعش ، حتى شعرى ارتعش .. ثم أحسست بالخجل .. ولا ادرى لماذا احسست بالخجل .. ولكنى لم اقف لافكر فى سبب خجلى، بل جريت الى حجرتى .

وابتسمت لنفسى وانا فى سريرى ، وظللت اتقلب طوال الليل وانا أستعيد الاحساس بشفتيه ، والارتعاش لايفارق جسدى ، بل كان جسدى يزداد ارتعاشا كلما تذكرته وتذكرت شفتيه ، وأصابعه فى شعرى وكلما تخيلت انه لايزال يقبلنى ..

سألت نفسى يومها « هل تحس « سوسو » جارتى بهذا الارتعاش عندما يقبلها أبوها .. ؟ هل كانت تحسه المشلولة عندما كان يقبلها « المرحوم » وخليل بك .. وعمران بك ... ؟

كان للمشلولة رجال كثيرون يزورونها قبل أن تشل ، ولكن أحدهم لم يكن يقيم معنا ... وقد رايت كلا من هؤلاء الثلاثة يقبلها ... ودخلت حجرتها مرة فرأيتها بين ذراعى خليل بك ... وهو يقبلها ... فنظر الى فى غضب وقالت « اخرجى فاغلقى الباب ... » وكنت صغيرة فى ذلك اليوم فلم أفهم شيئا من كل ما كنت أرى .

تذكرت ذلك كله وأنا اتقلب على السرير ، لا اجد رغبة فى النوم ، واستعجل ظهور الصباح حتى أرى جميل ، دون أن أفهم لماذا كنت اتلهف الى رؤياه أو لماذا تذكرت هذا كله . ؟

وفجأة سمعت صوت جميل ينادينى ــ كانت حجرتى مظلمة ، وكان البيت كله مظلما ... فلم أره ، ومع ذلك فان صوته وحده جعلنى ارتجف ، ثم احسست بيده تبحث عنى وتلمس كتفى ، ففكرت فى أن اصرخ ، ثم سألت نفسى ، ولماذا أصرخ .. ؟ فلم اصرخ .

* * *

قال لى ليلتها « لست مجنونا لأوقع بك ضررا ... » فلم أفهم أى ضرر يمكن أن يوقعه بى ، ولكنى كنت مع ذلك خائفة ، وان كنت سعيدة . ثم عرفت بعد ذلك بشهور ما كان يقصد بالضرر ، عندما تحول فجأة ضوء حجرته الأصفر الى ضوء أحمر فى لون الدم ... فبكيت

كثيرا اذ كنت أعلم أن فى ذلك ضررا ، ولكن سرعان مازال هذا الضرر ، اذ لم أعد أتألم ... ثم فهمت بعد ذلك بشهور ـ بعد ن تحركت سـهير فى بطنى ـ أن الضرر لم يكن مجرد ألم .

* * *

لقد كان منظر « جميل » مضحكا يومها وهو يرتعد ، ويلعن أباه ولا أدرى ما دخل أبيه فى الموضوع ... وقد حذرنى من أن أذكر شيئا مما حدث أمام أحد ، وقد كان يحذرنى دائما من أن أذكر شيئا مما يدور بيننا لأحد ، ولكن « المشلولة » فهمت كل شيء وحدها ، فلم تكن فى حاجة لأن أقول لها .

« والمشلولة » تكرهنى ، وكانت تود لو طردتنى كما طردت كلبها الاسـود لولا أن كانت دائما فى حاجة الى ، بعد أن لم يبق بجانبها غيرى .. وكانت تكره جميل أيضا ، ومع ذلك كانت تعتز بوجوده ، للجنيهات التى كانت تقبضها منه ، وللحلوى التى كان يملأ بها حجرها .. وبرغم ذلك ثارت عليه عندما اكتشفت ما حدث بيننا فطردته من البيت كما طردت الكلب الاسود ، وهذا هو ما ظلت تقوله وتعيده ولا تزال .

بكيت يوم أن رحل جميل عن البيت ، وصرخت فى العجوز ، « لماذا جعلتيه يرحل .. ؟ لأنك تفارين منى ... لأنك تفارين منى ... لأنك مشلولة .. »

وكانت هذه الكلمات كلمات جميل ، قالها قبل أن يترك البيت بساعة .

* * *

كثيرا ما كان جميل يقول كلاما غريبا ، لم أكن أحفظه ، ولكنى كنت اقف مشدوهة وأنا اسمعه ، وكنت أسأل نفسى كيف يحفظ كل هذا هذا الكلام .

وكلامه كان يريحنى ولكننى كنت أخجل من نفسى عندما لا أجد ما أقوله ، فكان يقول لى « انت بلهاء .. » فكنت أضحك ، لأنه لم يكن يقصد أن يؤلمنى فقد كان يحبنى وكان يقبلنى كثيرا ويضحكنى .

وكان يحكى حكايات أليمة عن أبيـه ، وعن موت أمه ، فقد كان يحب أمه ، فقلت له مرة وأنا متأثرة بحديثه عنها « أنت أبى ... وأنا أمك .. » فراح يضحك ، فضحكت أنا أيضـا وأنا لا أعرف ما الذى يضحكه ... ولما سكتنا ... تألمت لأنه كان يضحك ، فقد كنت أقول ما أقول من كل قلبى .

ثم قال بعد أن كف عن الضحك ،

ـ انك بلهاء ... فأمى ماتت صغيرة حقا ، ولكنها لم تكن طفلة .. ولم تكن بلهاء .

* * *

كان جميل صادقا عندما قال لى ان العجوز تغار منى ، لأنها كانت تغار منى فعلا ، اذ لم يعد يهتم بها أحد من الرجال ... وأنا واثقة من أنها كانت تتمنى لو أخذت جميل لنفسها ... فلما يئست طردته من البيت .

والمشلولة تكره كل ما أحبه ... ومرة اعجبت بقطة صغيرة جميلة، وجدتها على سلم العمارة ، فحملتها معي الى البيت ، فلما رأتنى أداعبها وأقبلها ، راحت تصرخ وترغي وتقول ،

ـ القوا بهذه القطة اللعينة الى الشارع ... أنا لاأريد قططاسوداء فى البيت ، أنت تريدين قتلى يابنت الحرام ، كلب أسود ، وقطة سوداء وعيشه سوداء من يوم أن رأيتك .

كان ذلك قبل أن يسكن جميل عندنا ، فلما جاء جميل وأحبنى وأحببته ، طردته أيضا ، مع أنه ليس أسود ، اليس معنى هذا ... انها تغار منى .. ؟ ما الذى يضحكك . ؟

* * *

اثنان فرحا بخروج جميل من البيت ، المشلولة ، وعم جابر البواب ... ففى اليوم التالى لخروجه ، رآنى عم جابر عند باب العمارة ، فقال لى .

ـ الحمد الله ... اللى الجدع ده غار من هنا ... مصيبة وانزاحت . فقلت له فى غضب .

ـ ومالك به انت ؟ ..

فدهش وقال .

ـ ايه الحكاية ياست روز .. ؟ دا كان جدع غريب قوى .. دا مش طبيعى : ولما ظهرت على علامات الحمل ، كان ينظر الى وانا صاعدة وأنا نازلة ، ثم يمصمص بشفتيه ويهز رأسه ، فلم أكن أهتم به ، وان كنت دائما أتساءل ، « ماذا يقول لنفسه الآن ... ؟ »

والحقيقة اننى لم اكن أخاف أحدا مثلما كنت أخاف « عم جابر » مع انه رجل طيب جدا ، وكان دائما يبتسم لى ويعاملنى كأننى طفلة

حتى بعد أن كبرت ... فلما ظهرت على علامات الحمل تغيرت نظرته الى ، وسمعته يقول مرة عندما رآنى « لا حول ولا قوة الا بالله .. »

وفوجئت به ذات يوم يقول لى .

ـ يعنى ياست روز ... مالقتيش غير المجنون ده وتتجوزيه من ورا الهانم .. كويس رميتك دى .

فدهشت لكلامه ولكننى لم أنطق ، فاستمر فى كلامه .

ـ دا الهانم زعلانة قوى ، وهى كانت تمانع فى جوازك ؟ بس ع الاقل يقدر يصرف عليكى وعاللى جاى فى السكة ده .

وانت لسه صغيرة .

فلم أعطه فرصة ليتم حديثه ، وتابعت طريقى وأنا أبتسم ، وسألت نفسى « لماذا كذبت المشلولة .. ؟ » فلما دخلت الشقة ، صرخت قبل أن ترانى .

ـ تفضلى ياست روز .... اسمعى مايقول الناس عنى .. يقولون انى أتاجر فيك ... والله عال ... لقد جلبت لى المصائب ... أين أذهب بوجهى من الناس ... ياليته كان رجلا بحق ... ولكنه ملحوس المهم ، أن عم جابر صار أكثر رقة وأشد طيبة ، وكان لايفتأ ينصحنى بكلام لم أكن أسمعه وطبعا لم أكن أحفظ فى رأسى شيئا منه .

أما الجيران ، فانهم لايهتمون بأحد ، فسكان الشقة الملاصقة لنا لم يدخلوا شقتنا أبدا ، كما أننا لم ندخل شقتهم ، كل الناس مشغولون بأنفسهم ، حتى أن فى عمارتنا شقة سمعت عم جابر يقول ان صاحبتها ـ وهى متزوجة ـ تستقبل فيها رجالا أصنافا وأشكالا ، ومع ذلك فان أحدا فى العمارة لايهتم .. كل واحد يهتم بحاله ، وهذه خصلة طيبة ... والا فماذا كان موقفى ... ؟ .. اننى لم أسأل نفسى هذا السؤال الا أخيرا ، بعد أن فهمت كل شىء .. أما فى أول الأمر فأنا أذكر انى سألت جميل عندما أصر على أن احتفظ بسهير فى بطنى ، ولم تكن قد سميناها بسهير بعد ، بل لم تكن علامات الحمل قد ظهرت بعد .

ـ وماذا أقول للناس ؟

ـ أى ناس ؟ ..

ـ الناس ... وعم جابر البواب ..

ـ ولا يهمك ..

لقد حفظت كلماته كلمة كلمة ، حفظتها ليلة أن قالها ، وظللت أرددها لنفسى وانا فى سريرى طوال الليل ، وفى الصباح وجدتنى سعيدة

بأننى سيكون لى طفل ، بل طفلة . فلقد تمنيت أن تكون طفلة ، ولم أعد أسأل نفسى هذا السؤال ، ولم يعد يهمنى ..

❊ ❊ ❊

كان جميل بعد أن ترك شقتنا قد سافر الى البلد فى الاجازة السنوية ، فأرسلت له ثلاثين خطابا فى ثلاثة شهور .. وكنت أبكى كثيرا لانى لم أكن أراه .. ولما عاد ، زارنى ، فقبلته كثيرا ، وقبلنى كثيرا . وبكيت على صدره فى حجرتى .

وقال لى انه يسكن فى « عوامة » على النيل » بالقرب من « كوبرى الزمالك » . وطلب منى أن أزوره هناك ، ووصف لى الطريق ، وهذه العوامة لا تبعد عن حى العجوزة . فكنت أذهب اليه كل ليلة .

وأول مرة دخلت فيها العوامة لم أكن وحدى ، فقد انتظرنى جميل امامها ، ثم أخذ بيدى وراح يساعدنى على عبور السقالة الموصلة بينها وبين الشاطىء .. ولم أكن قد دخلت عوامة فى حياتى ، فكنت متلهفة على أن ادخل واحدة ، ولكنى كنت خائفة ... فوجودها فى الماء بعيدا عن الارض ، والاشجار الكبيرة التى تحجبهـــا عن الشارع ، وشبابيكها الصغيرة ، كلها كانت تفزعنى ... ولكن مادام جميل معى فقد كنت مطمئنة ... لم أكن احس بالخوف .. أبدا .. وانامعه وكنت لا أتوقع أى سوء وأنا بجانبه . بل وأنا أفكر فيه ... كان مجرد التفكير فيه يطمئننى .

ولكننى أقول لك الحق ــ شعرت بالخوف عندما قابلنى بأفراد « الشلة » التى تقيم معه ... اســـماعيل ورفاعى ومصطفى ، أخافنى اسماعيل بالأكثر ، لا بل رفاعى بالاكثر ، ومصطفى أيضا كان يخيفنى ، بل كان هو الذى يخيفنى بالاكثر .. كلهم أخافونى ..

صوت اسماعيل الخشن جعلنى أرتعد عندما قال .

ــ « انها شىء آخر غير الأخريات يا مصطفى .. ولكنها صغيرة .. »
وكنت أحس بعين رفاعى تنهشنى ، وكان مصطفى يبحلق فى وجهى ــ ولم أكن أعرفه على حقيقته ــ فخيل الى انه ينوى ان ينط فيخطفنى .

ولكن بعد أن عرفتهم وجدتهم طيبين الا رفاعى الذى حاول ثلاث مرات فى غيبة جميل أن يغرينى ، فكان يقول لى .

ــ اننى وجميل أصدقاء ، أنا بالذات ، وجميل لا يمانع ، أحبك ياروز ، وجميل لا يحبك .

وفى كل محاولة كنت أصده ، وأبكى ، فكان يعتذر لى و..

الا أروى ما حدث لجميل ، فلم أكن أشكوه اليه . ولما يئس نهائيا عاد فأصبح طيبا كما كان .

أما مصطفى فقد ظللت لآخر لحظة أخافه مع انه كان أطيبهم وأرقهم قلبا ، وأكثرهم اهتماما بى ، وأسرعهم الى ترضيتى عنـــدما كان جميل يسىء الى .

ولا أدرى لماذا كنت أخافه بالذات ، برغم كل مالمسته فيه ــ كمـــا لا أدرى لماذا كنت أكرهه .. لعل ذلك لأنه كان يكره جميل .. ولكن اسماعيل ــ أيضا ــ كان يكره جميل ... ومع ذلك لم أكن أكرهه ، أو كنت أحمل له قدرا ، أقل من الكراهية .

ولم أكن أحب سماع كلام اسماعيل ، فقد كان لكلامه وخز كالابر ، وكان يتعمد أن يقول ما يؤلمنى ، ففى أول مرة دخلت فيهـــا العوامة ، قال وهو يهز رأسه .

ــ روز « .. هه ... ؟ يعنى ورد ... اسم جميل ... لكن ــ للأسف ــ الورد يذبل سريعا .

فشعرت باغتمام وتمنيت لو انى سميت بأى اسم آخر ..

وعندما علموا أنى حامل من جميل ، راح مصطفى واسماعيل يوجهان الى كلاما كان يبكينى .

***

وبرغم كل شىء ارتحت للعوامة ، فكنت أمضى فيها أجمل لحظات حياتى ، وكنت اذا دخلتها لا أجد رغبـــة فى أن أتركهـــا ، فكنت انظم حاجياتهم ، وارتب أسرتهم وأحيانا كنت أطهو لهم طعامهم اذا كان عندهم ما يطهى .. وكنت أجد فى ذلك متعة لا أجدها فى بيت المشلولة .

وكنت أتمنى وأنا حامل أن يكون لى بيت ، يضمنى وجميل والطفلة الجميلة التى سألدها .. بيت صغير بسيط ، يخصنا نحن الثلاثة ، يخصنا وحدنا ، فلا يضايقنا فيه كلام اسماعيل ولا نصائح مصطفى ، ولا صراخ المشلولة ، ولا طيبة عم جابر ، ولا لسان صاحبة العوامة التى كانت تثير فى قلبى الرعب ، وكانت كما يقول جميل « المشـــــلولة على طيها .. » .

***

كانت «عزيزة» قد عرفت كل شىء عما انتهت اليه علاقتى بجميل بالمشلولة ، فى صباح أحد أيام الثلاثاء بعد خروج جميل من الشقة ،

بل وبعد انتهاء الاجازة وعودته الى العوامة .. فدخلت حجرتى مذعورة وكنت لاأزال فى سريرى فباغتتنى بسؤالها .

ــ ايه اللى عملتيه دا ياروز .. ليه كده يابنتى .. ؟

فأثار ذعرها ولهفتها الخوف فى قلبى ، وخطر بذهنى على الفور أن زهرية العجوز الموضوعة على «البوفيه» فى الردهة قد تحطمت فاعتقدت أنى السبب .. فهى تعتز بهذه الزهرية ، ولم أكن أدرى لماذا ، وكثيرا ما تسألنى ما اذا كانت لاتزال مكانها .. بل انها لتطلب أحيانا أن تراها حتى تطمئن الى بقائها على حالها .. وذات مرة أثارت ضجة استمرت أياما لأنى كنت السبب فى تهشيم قطعة منها .. وكنت لا أزال صغيرة . اضطربت ، واعتدلت فى السرير ، وسألتها .

ــ ماذا .. ماذا حدث .؟

فتهاوت الى جانبى ، وقالت فى ألم .

ــ ازاى تفرطى فى نفسك ياروز .. ليه ياحبيبتى .. ؟

وشردت بفكرى قليلا حتى وعيت قصدها ، فقد كان النوم لايزال يلف راسى ، واعتمدت بذقنى على ركبتى ، ثم سألتها :

ــ هل حكت لك المشلولة .. ؟

ــ أيوه حكت لى .. ليه ياروز تعملى كدة .. والشرف غالى يابنتى .

فتثاءبت ، ثم استلقيت على فراشى .. ثم عدت فاعتدلت وسألتها

ــ هل جربت الحب « يادادا » .. ؟ أليس شيئا جميلا .. ؟

وانتظرت أن تقول شيئا ولكنها لم تفعل ، فقلت :

ــ لماذا يحب الناس بعضهم .. أعنى لماذا ترتعش البنت عندما تكون مع الرجل ..

فقالت :

ــ الراجل اللى بيحب واحدة بيتجوزها ياروز .. مايضحكش عليها ..

ــ وما اهمية الزواج ؟.

وكان جميل غالبا مايقول هذا ، وكنت أصدقه ، فدهشت اذ رايت عزيزة تشهق وتصفع نفسها ، وتقول .

ـ ياخبر .

وسكتت قليلا وراحت تحدق فى وجهى ، ثم ضمتنى الى صدرها وراحت تبكى ، وقالت :

ـ صغيرة ياحبة قلبى .. عمرك ماهاتكبرى .. « وحدثتنى يومها عن الحمل حديثا شيقا ، جعلنى أبتسم فرحة ، ولكنها أخذت تبين مافى ذلك من « مصائب » بالنسبة لى ، حتى أثارت فى نفسى الرعب . وسألتنى عدة أسئلة أجبتها عليها ، فصرخت .

ـ دانت حامل .. يانهار أسود .. انت حامل .. ؟

***

حاولت « عزيزة » مرات أن تقنعنى بالتخلص من الجنين ، ولكنى رفضت ، لأن جميل كان يريده .. واذا كان جميل يريد شيئا فلابد أن أريده .. وأعجبتنى الفكرة ، فكرة أن يكون لى طفل ، أداعبه ، واغنى له ، ويكون معى كل الوقت .. وفى الاوقات التى لا أرى فيها جميل يكون الطفل معى .. فلا أكون وحدى أبدا . وأسعدنى أن يكون لى مايخصنى ، ولا يخص المشلولة ، طفل لاتملك المشلولة فيه أظفرا .. وهذا هو السبب فى أن المشلولة كانت تصرخ كلما اقترب ميعاد «الولادة» وتقول :

ـ لا أريده فى بيتى ... لا تلديه هنا .. يكفينى واحدة .. وهو أنت .. كفانى فضائح ..

ولكنى وضعته فى بيتها برغم أنفها ، وكان جميل فى بلدهم فى اجازة ، فلم تتركنى «عزيزة» دقيقة واحدة ، وكانت تبكى بالقرب منى ، فقد كنت أتألم .. لم أكن أتصور أن من تلد تتحمل كل هذا العذاب .. احسست بأنى أوشك أن أموت ، ولم أكن أريد أن أموت فى غيبة جميل .. وكنت أريد أن أراه وهو يحمل بين يديه طفلنا الذى صنعناه معا . وبعد ولادة «سهير» بثلاثة أيام ، لا أذكر أو أربعة ، كتبت خطابا لجميل .. كنت سعيدة ، وكنت على ثقة من أن هذا الخبر سيسعده .. فقلت له فى خطابى كل شىء ، اذ كان لابد أن يعرف كل شىء .. قلت له كم أنا سعيدة ببنتنا ، فقد كانت بنتا كما كنت أتمنى أن تكون .. وكانت صغيرة .. كالقطة .. كما كانت جميلة .. هادئة لاتصرخ كثيرا .. ولكنها كانت شرهة .. وكم كان منظرها لطيفا وهى ترضع ، ولم يكن يضايقنى أن أرضعها .. ولكنى أحيانا كنت أحس بالتعب .

ونظرت الى المشلولة وراحت تتأملنى ثم قالت :

ـ لقد كبرت ياروز .. وصرت امراة بحق .. انظرى .. لقد اصبح لك صدر .

ثم سألتنى .

ـ انما قولى‌لى .. هل الارضاع عمل‌لذيذ .. هل يرتعش جسمك وانت ترضعينها .. ؟

واذا كلمتنى المشلولة بمثل هذه الرقة فلابد ان لها هدفا ، وقد كان هدفها فى تلك المرة هو أن تدفعنى الى حجرة « حسن أفندى » الساكن الجديد ، الذى حل محل الطالب الاردنى .. الذى حل محل جميل ..

« وحسن افندى » هذا رجل سخيف ، بارد .. منفوخ مثل « شوال القطن » .. كان يضحك كلما رآنى ويغمزلى بعينه ، بل‌وأحيانا كان يمده يده الى ذراعى ، فكنت أنهره .. وهددته مرة بأنى سأشكوه الى « جميل » فسأل المشلولة عمن يكون جميل : فقالت له انه زوجى الذى هجرنى .

وقد أحبته المشلولة « من أول باكو شيكولاته أهداه اليها .. » ولا أستبعد انه كان يعطيها نقودا فى الخفاء .

وعندما عاد جميل من البلد شكوتهما اليه ، ولكنه لم يهتم ، فبكيت لأنى كنت أعيش به هو ، وله هو .. فوعدنى بأنه لن يسكت .

وفى اليوم التالى جاء بيتنا ، فلقن المشلولة درسا قاسيا ، ولكنها سرعان مانسيته ..

فى ذلك اليوم رأى « سهير » ولم أكن سميتها بسهير بعد ، وآلمنى انه لم يقبلها .. فكيف يكون للبنت أب لايقبلها ، فقلت له ، « لماذا لم تقبلها .. ؟ » فقبلها .

وفى اليوم نفسه اقترح أن أسميها سهير ، وكان قد اقترح على من قبل أن أسميها باسم آخر لا اذكره ، وسألته ؟

ـ من تكون سهير .. ؟

ـ زميلة لنا .

ـ هل تعرفت عليها .. ؟

ـ قلت لك .. انها زميلة لنا .. وهى متزوجة ..

ثم ثار لاننى أسأله ، ولما تركنا وانصرف بكيت كثيرا ، فقد خشيت

أن تسلبه امرأة . فأنا لاأستطيع أن أعيش بدونه ، « وسهير » فى حاجة اليه .. فهو أبوها ، ولابد أن يكون للبنت أب ، يقبلها ، ويشترى لهـا الفساتين واللعب ، كما انه لايمكن أن يكون للبنت أب وتدخل الملجأ .

***

والذى لا أفهمه ، هو لماذا تغير جميل .. ؟ لم أتغير أنا حتى يتغير ولم أكن أفعل شيئا لايرضيه ، وكنت أفعل كل مايرضيه ، وأترك «سهير» وحدها واذهب الى العوامة من أجله .. وأقضى كل الوقت أفكر فيه.. وبرغم كل ذلك فقد تغير .. حتى ابنته التى ارادها لم يكن يقبل أن أحملها الى العوامة ، ولم يكن يكلف نفسه المجىء لرؤياها .. وصار يقسو على بلا سبب ، بل وصار يطردنى من العوامة .

ولكنى لم أكن أستطيع أن أعيش بدونه ، وسهير كانت فى حاجة اليه ،.. نحن الاثنان كنا فى حاجة اليه .. وكان هو كل شىء بالنسبة الينا ، فكنت أعود اليه ، وأنا أقول لنفسى .

« اذا كانت سهير .. زميلته هى السبب .. فان صلتى به أقوى من صلتها به .. فأنا أم ابنته .. واذا استطاع أن يتركنى فلن يترك ابنته .. »

كان كثيرا مايذكر سهير أمامى ، ويقول انها فاتنة ، مثيرة .. فكنت أبكى ، واسأل مصطفى « هل هى جميلة ؟. » فكان مصطفى يقول «أبدا .. » ومصطفى لايكذب فلابد أنها ليست جميلة .. ومع ذلك كان جميل يقول امامى انه يحبها ، وانها تحبه فكنت اصرخ واشد شعرى .. فيقول لى ، « لماذا تصرخين .. يامجنونة ؟. »

وقد ذهبت مرة الى الكلية دون علمه ، فوقفت أمام بابهـا حتى أراها ، وكنت أعلم أنها شقراء ، ولكنى رأيت هناك أربع شقراوات ، فلم أعرف أيتهن سهيرا فكنت كلمـا رأيت واحدة منهن .. ظننتها هى . ثم عدت الى ابنتى فرحت أقبلها وأبكى .

لم أعد اضحك أبدا ، وصرت أبكى كل يوم ، والمشلولة لاتفتأ تقول لى ، « خليه ينفعك .. الملحوس بتاعك .. » فكنت أصرخ فيهـا ، واشتمها .

فكانت تقول لقد كبرت ياروز فافهمى الدنيا .. جميل لن ينفعك .. وحسن أفندى رجـل غنى .. ولو شئت لاسعدك أنت والملعونة الصغيرة ..

ولكننا ـ انا وسهير ـ لم نكن فى حاجة الى مال حسن افندى ، بل كنا فى حاجة الى حب جميل .

***

وفى أحد أيام الثلاثاء ، قالت عزيزة وهى تحمل سهير بين يديها ، « ياخبر .. ياروز .. دى بنتك مرضانة » دى هاتموت .. « فلطمت وجهى ، وصرخت » .

ـ مستحيل .

ـ لازم تعرضيها على دكتور حالا .

ولا أدرى كيف عرفت عزيزة أن سهير مريضة ، فقد كان ماقالته صحيحا . لم أنتظر دقيقة واحدة ، وحملت سهير فى لفافتها بين ذراعى وسرت بها كالمجنونة الى طبيب قريب وصفت لى عزيزة الطريق اليه ، فدفعت له خمسين قرشا من مصاريف البيت ، ليقول لى « انها مريضة .. لماذا انتظرت عليها كل هذا الوقت .. هذا اهمال .. » ثم كتب لى كشفا طويلا بالدواء .. وعدت أبكى ، ودخلت على المشلولة وقلت لها .

ـ ان ابنتى ستموت .. وهى فى حاجة الى كل هذا الدواء لتعيش .. فلابد من شرائه .

فضحكت ، ثم قالت :

ـ ليس معى فلوس .. خذى من حسن أفندى .

فصرخت فيها .

ـ أنا أكلمك انت .. ولا أكلم حسن « زفت » .

ـ امرك غريب والله .. وهل انا مكلفة بك وابنتك .. أمامك حسن أفندى .. اطلبى منه .. أو فاذهبى الى « روميو » ان كان معه ثمن طعامه .

***

وقطعت الطريق الى العوامة جارية ، وكان جميل نائما فى حجرته على حين كانت بقية الشلة فى الصالة .. قلت له وانا استرد انفاسى .

ـ سهير مريضة ياجميل ..

كنت قبـل أن التجىء اليـه أخشى أن اسبب له ازعاجا ، كنت اتصور أن الخبر سيقتله .. أو أنى سأراه يبكى لاول مـرة .. ولكنى فوجئت به يقول :

ـ اقفلي الباب .. وتعالى بجانبى ؟

لو كنت اقول له انى جائعة لما ضايقنى استهتاره ، أو لو كنتأقول له ان حسن أفندى اغتصبنى لحاولت أن أجد عذرا لعدم اكترائه ... ولكنى كنت أقول له « ان ابنتنا مريضة » ..

كيف يكون الاب أبا ، اذا لم يهتم بابنته المريضة .. ؟.. ولماذا وجد الآباء اذن .. ؟ ولماذا لايدخل الاطفال كلهم الملاجىء .. ؟

قلت له .

« البنت ستموت ... اذا لم أشتر لها الدواء .. »

ولكنه صمم على أن اغلق الباب .. ولا أدرى لماذا راقت له « هذه المسألة » فى هـذا الوقت بالذات ، والبنت تموت ، وأنا أكاد أجن .. والحياة كلها لم تعد لها قيمة ولا طعم .. ولم أكن قد ذقت طعم الاكل ولا الماء منذ قالت لى عزيزة ان البنت مريضة وانها ستموت .. لماذا اختار هذا الوقت بالذات .. ؟

وطردنى من الحجرة وأغلق الباب وهو يقول :

« كفى عن الصراخ يامجنونة ؟.. »

واقرضنى مصطفى مبلغا من النقود ، ففكرت طويلا فى وسـيلة لأرده اليه فلم أجد امامى سوى أن أرسل خطابا الى والد جميل أطلب منه مساعدتى ، وكان خطابا مستعجلا « وبرغم هذا لم يصلنى منـه شىء » .

وماتت « سهير » .. ولم يفلح الدواء الذى شريته بفلوس مصطفى .. ماتت قبل أن تتم السنة .. كنت قـد قضيت الليـل مستيقظة بجانبها ، أبكى وأقبلها .. وأقول « لاتمـوتى ياسـهير .. لا تتركينى وحدى .. » ثم غلبنى النعاس ، فلما فتحت عينى لم أجدها .. وجدت قطعة من الثلج .. قطعة من الخشب المثلج .. لم تكن تحرك عينيهـا ولا يديها .... ولا شفتيها .. لم يكن يتحرك فيها أى شىء .

قلت لنفسى « انها نائمة .. » ولكنها لم تكن نائمة .. لان النائمين يتنفسون ويستيقظون اذا هززناهم ، أو قرصناهم ، أو عضضناهم . أو صرخنا فى آذانهم « سهير .. هل مت ياسهير ؟ .. »

أنا لا افهم .. لماذا يمـوت الناس .. ولمـاذا يجيئون اذا كانوا سيموتون ؟ .

واذا كانت البنت لاتعيش الا سنة ، ولاتتم السنة فلماذا تجيء .. أليس أرحم لامها ألا تجيء ..؟

كان جميل كثيرا ما يسألنى « لماذا تعيشين .. ؟ .

فكنت لا أعرف بماذا أجيبه . فكنت اقول من كل قلبى « اننى أعيش من أجلك » ولكن بعد ان ماتت سهير .. وبعد أن تلقى الخبر كما تلقى خبر مرضها .. وبعد أن مزقت وجهه وقميصة .. وبعد أن تخلى عنى .. فاننى لم أعد أعرف لماذا أعيش .. ؟

***

رأيتهم ينتزعون جثتها من السرير ، ورأيتهم يلفونها فى ثوب أبيض ، ثم رأيتهم يخرجون بها الى حيث لا ادرى ، فلم أمنعهم ، ذلك أن ما كانوا ينتزعونه ويخرجون به ليس هو ابنتى .. فابنتى تتنفس وتبكى وترضع .. وتضحك اذا داعبتها .. وتبتسم .. أما ما انتزعوه ولفوه وخرجوا به ، فلم يكن سوى قطعة من الثلج .. قطعة من الخشب المثلج .. وبعد أن أغلقت عزيزه الباب وراءهم ، خيل الى أن ابنتى ستعود .. وعندئذ لن تجد جسمها .. كنت كالمجنونة ، فتخيلت أن ابنتى شيئان مختلفان .. فقمت أصرخ وراء عم جابر واسماعيل ومصطفى ورفاعى .. « هاتوا ابنتى .. لا تأخذوها منى .. لا تتركونى وحدى .. »

وأمسكت عزيزة بى ، وأخذتنى بين ذراعيها وراحت تبكى .. وانفلت منها ، وفتحت باب المشلولة ، وصرخت فيها .

ــ ماتت سهير .. فهل ارتحت يامشلولة .. لماذا لم تموتى انت ؟ . ان أحدا لا يريدك .. أما ابنتى فأنا أريدها ..

فصاحت .

ــ ابعدى عنى هذه المجنونة يا عزيزة .. ابعديها عنى ؟ ..

فجريت الى زهريتها فانتزعتها من مكانها ثم عدت اليها .. فحطمتها على الارض أمامها ، فهتفت فى جزع .

ــ ياللمصيبة .. هدية « فتحى » هى التى بقيت لى .. وجرتنى عزيزة الى حجرتى ، وصرخة المشلولة ترن فى رأسى ، فتذكرت « قلم الروج » ، هدية جميل الوحيدة .. فأخرجته من حقيبتى ، حقيبة المشلولة التى انتزعتها منها ، ورحت أتأمله ، ثم قذفت به على الارض ..

***

بقيت عزيزة بجانبى ، ولم تعد تتركنى الا لساعة أو اثنتين كل

يوم كانت تمر ببيتها خلالها لتطمئن على أولادها ، وكان اسماعيل ومصطفى لا ينقطعان عن زيارتى كل يوم .. أما رفاعى فلم أره بعد وفاة ابنتى .. وقال اسماعيل انه سافر وانه حزين من أجلى .

ولا أدرى ، لماذا اتعبوا أنفسهم ــ جميعا ــ من أجلى ، مع انى لم أكن أحبهم كما أحب جميل ؟ ولماذا تألم رفاعى لموت ابنتى مع أنها ليست ابنته ، وكنت أصده فى كل محاولاته معى .. ؟ لماذا يحب الناس بعضهم بعضا .. ويكرهون بعضهم بعضا .. ويعذب بعضهم بعضا .. ؟

لماذا تركنى جميل ولم يهتم بموت ابنته ، ولماذا ماتت ، ولماذا أنا وحيدة ، برغم وجود عزيزة ومصطفى واسماعيل وعم جابر البواب .. ؟

بقيت بحجرتى لا أبرحها ، لا أنام ، ولا آكل ، وعزيزة تحاول أن تطعمنى كأننى طفلة .. كما كنت أطعم « سهير » ، فهى تدللنى ، وتقبلنى ، ثم تبكى من أجلى .

وزارنى مصطفى وحده ، وكان يبدو كالمريض ، وقال لى :

ــ انت تقتلين نفسك ياروز ..

فقلت .

ــ ماذا بقى .. لأعيش من اجله ؟ .

ــ العالم لم ينته بموت ابنتك

ــ ومالى أنا بالعالم ؟

ــ انك تعيشين فيه

ــ وهل انا أعيش يا مصطفى . ؟ !

ومد يده الى بشىء صغير يلمع وقال .

ــ علقى هذه برقبتك ياروز .

فنظرت الى ذلك الشىء ، ثم تطلعت الى وجهه ، فقال :

ــ انها صورة العذراء .. علقيها برقبتك حتى لا تكونى وحيدة .

وراح يكلمنى عن « ربنا » وعن الايمان .. وكثيرا ما كان يكلمنى عن ربنا والايمان .

فسألته :

ــ وهل أنا مسيحية يا مصطفى ..؟

كنت أريد أن أعرف بحق ، فقال لى :

ـ لقد سمعت منك أنك كنت فى الملجأ تصلين فى كنيسة ٠٠ وتبتهلين للعذراء ، فالمسيحية أقرب اليك ٠

وسكت قليلا ، ثم قال :

ـ المهم هو أن تؤمني بوجود قوة كبيرة فوقنا ٠٠ تسير كل شيء ٠٠ وترعاك ٠٠ الله ٠٠ أقوى من جميل ٠٠ وأقرب اليك من جميل ٠٠ وأرحم ٠٠ فلن تكوني وحيدة أبدا ٠

وترك صورة « العذراء » فى يدى ٠٠ ومضى ٠٠ فلم أره بعد ذلك اليوم ٠٠ فقد سافر الى بلدهم ولم يعد ٠

***

وبعد أيام عادت عزيزة الى بيتها ، فكانت تأتى لزيارتنا فى الصباح وفى الظهر ثم فى المساء ٠ وتباعدت زيارات اسماعيل ٠٠ ومن ثم بقيت وحيدة بين جدران حجرتى ، لا أرى المشلولة ولا ترانى ٠٠ وأسمع صرخاتها تناديني فلا أهتم ٠٠ وكان حسن افندى متغيبا عن البيت فعاد ، وارتفعت ضحكاته فى حجرة المشلولة من جديد ٠٠ فازداد احساسى بالوحدة ٠

وكنت قد نسيت ما قاله لى مصطفى ، ولا أدرى أين وضعت هديته ، فكان يتراءى لى أحيانا فى الليل أن أبحث عنها ، فكنت لا أعثر عليها، فأفقد الحماس لها ٠

***

وقالت لى عزيزة : اننى مريضة ، ولكننى لم أكن مريضة ، وانما كنت أفكر فى سهير وفى جميل ٠٠ وقابلنى حسن افندى فى الصـــــالة مرة وقال لى :

ـ وبعد يا روز ٠٠ اننى متألم بسبب حزنك هـذا ٠٠ ما رأيك لو صحبتك الى السينما ٠٠؟

فلم أرد عليه ، وانما بصقت على الارض ٠٠ ومنـذ تلك اللحظة وأنا أخافه كما لم أخفه من قبل ٠٠ أصبحت أخاف الناس جميعا ، وأخاف الظلام ، فكنت أغلق بابى من الداخل بالمفتاح ٠٠ وأترك مصباح حجرتى مضاء حتى الصباح ٠

***

قلت لنفسى « لو ظل مصطفى بجانبى ٠٠ لأحببته أكثر مما أحببت جميل » ثم قلت : « لو عاد رفاعى لأحببته ، فقد كان يحبنى دائما ٠٠ »

ثم صرخت : « كلهم غشاشون ٠٠ يخدعون البنات ٠٠ » ولكنى عدت

ففكرت وقلت : « لا يهم فيمن أريده ، أن أحبه أو يحبنى ٠٠ يكفى أن يبقى بجانبى ٠٠ » وخرجت فى الليل أبحث عن اسماعيل الذى لم يزرنى ثلاثة أيام بأكملها ٠

وفى طريقى الى العوامة ، لم أفكر فى اسماعيل الذى خرجت بسببه ٠٠ وانما كنت أفكر فى جميل ٠٠ وتذكرت انى كنت أسأله :

ــ هل تحبنى يا جميل ٠٠؟

فكان يجيبنى غاضبا :

ــ ألا تكفين عن الاسئلة ٠٠؟

ومرة قال لى : آنا أحبك بجسمى ٠٠ فلم أفهم ســاعتها كيف يحب الانسان بجسمه ٠

ووجدت العوامة معتمة ، لا يلوح منها بصيص من النور ٠٠ فما ان وقع عليها بصرى حتى تملكنى الرعب ٠٠ وازداد انقباض قلبى ٠٠ ورحت أعض أصابعى ، وأحدث نفسى ، « حتى اسماعيل لا أجده » ٠٠ لماذا تخلى عنى ٠٠؟

كلهم تخلوا عنى ، « الشلة » بأكملها وسهير ٠٠ وعزيزة التى لم تعد تأتى الى البيت من أجلى بل من أجل أن تعد الطعام ، وترتب البيت؛وتجيب طلبات المشلولة ٠

ورجعت فى نفس الطريق ، وأنا أتصبب عرقا ٠٠ وكنت أمشى على مهل ، فقد كانت قدماى تؤلمانى ٠٠ وكان جســدى كله مفككا ٠٠ وكنت مذهولة ٠٠ ودنت سيارة منى ، وفتح بابها ، ودعانيصاحبها للركوب٠٠ فأسرعت الخطى وأنا ألهث ولكنة لاحقنى ، فجريت ٠٠ وقد تملكنى الذعر لماذا تملكنى الذعر ٠٠؟ لا أدرى ٠٠؟ كثيرا ما كانت الســيارات تفتح لى أبوابها ، من قبل ، فلم آكن أهتم بها٠٠وكثيرا ما اعترضتنى أشباح رجال فى الظلام وتبعتنى ، فلم أكن أكترث لها٠٠أما فى تلك الليلة فقد أفزعتنى السيارة ٠٠ فظللت أجرى بلا توقف ٠

وعند ما غاب صوت السيارة ، وقفت أســترد أنفاسى ، ثم تابعت طريقى ٠٠ وعلى سلم العمارة حدثت نفسى :

« لماذا لا أحب حسن افندى ٠٠ اننى أخافه الآن ، فاذا أحببتــه فلن أخافه ٠٠ »

ثم قلت لنفسى :

« لا يهم أن أحبه ٠٠ المهم هو أن أكسبه الى جانبى ٠٠ »

وفتحت باب الشقة ، ودخلت ، ثم أغلقت الباب فى هدوء ٠ كانت

الصالة مظلمة ، وكان باب المشلولة مغلقا . أما باب حسن افنـدى فكان مواربا يتسلل منه الضـــوء ·· فاقتربت منه ·· وفجـــأة ســـمعت ضحكة امرأة غريبة ·· ضحكة قذرة كضحكات المشـــلولة ·· فارتجفت ، ودفعت الباب فى عنف ، فرأيت امرأة ، تشبه « موديلات » مصطفى بين ذراعى حسن افندى··ونظر الاثنان الى فى دهشة ، فأبعدت وجهى عنهما، ثم استدرت ، وتسحبت الى حجرتى ··

ولم أشعل النور ، وبقيت فى الظلام أفكر ، وأسأل نفسى : «لماذا رسمنى مصطفى ·· ولماذا قال عنى انى ضحية ·· وماذا يعنى بالمعذبات ·· هل هذا هو ما يعنيه ·· وهل أنا ·· » ؟

وتألمت من مصطفى ولكننى لم أعد أكرهه ·· ولماذا أكرهه ··؟

***

خرجت الى شرفة حجـــرتى ، ورحت أطل على الطريق ·· وأتأمل مصابيح الشارع الخافتة التى لا تبدد شيئا من الظلام ·· وســـمعت من جديد ضحكة « المعذبة » فى الداخل ·· ثم ضحكة حسن افندى ·· حتى حسن افندى تخلى عنى ··

وتذكرت سهير ابنتى «وسهير» زميلة جميل كما تخيلتها ·· وجميل وهو يسألنى : « لماذا تعيشين يا روز » وأنا أقول « من أجلك يا جميل »·

ولم أعد أرى شيئا ، فقد ملأت الدموع عينى ، وبللت وجهى وتردد فى رأسى قول مصطفى : « لن تحسى بالوحدة ·· فالله لن يتخلى عنك ··» فهمست بصوت سمعته أذنى :

ـ أين هو الله ·· أين هو ·· فأنا وحيدة يا مصطفى ··؟

أما ما حدث بعد ذلك فأنا لا أكاد أذكره··كل ما أذكره أنى أغمضت عينى ، ثم أحسست بالدنيا تدور دورانا سريعا رهيبا ، ثم أحسست بشىء يصدمنى ·· ثم خيل الى أنى أغوص فى مياه ساخنة لا قرار لها ·

***

ولما فتحت عينى ، وجدتنى فى هذا المكان ·· كنت لا ارى شـــيئا بوضوح فى أول الامر ، ولكننى استطعت أن أتبين أنى فى مستشفى ·· فهناك أشباح ناس عديدين على أسرة بيضاء ·· وأصـــوات مختلطة ·· وتأوهات ·· وأنات ·· ووجه أبيض يقترب من عينى ، وصوت يقول :

ـ أيوه يا دكتور ··

ولما فتحت عينى ثانية استطعت أن أرى الاشياء أقل غموضا ·· كما استطعت أن أميز وجة ممرضة ينحنى على ويبتسم ·· فتذكرت أشـــياء

بعيدة لم أكن أتذكرها من قبل ·· الكنيسة ، وصورة العذراء الكبيرة ووجوه الراهبات الطيبات وهن يبتسمن لنا ·· وتذكرت أن بنتا كانت معي في الملجأ ضربتني ذات يوم ، فشكوتها الى احدى هؤلاء الراهبات ، وكنت أبكي ، فمسحت دموعي ، وداعبت وجهي وقالت :

« لا تبكي ياروز ·· فالسماء رحيمة بالضعفاء ·· »

كما تذكرت أني غادرت الملجأ مع « ماما ميمى » بعد هـــذه الحادثة بأيام وأنى ظللت أردد لنفسى أسابيع بأكملها : ان السماء رحيمة فعـــلا بالضعفاء · والا لما اختارتنى هذه المرأة الطيبة ·· فقد كانت «ماما ميمى» طيبة فى تلك الايام ·· ولا أدرى ما الذى غيرها ·

ثم تذكرت أخطائى كلها ، وتذكرت جميل ، فلم يلم بى أى انفعال بل مر بخاطرى كما يمر الظل فلم يترك أثرا ·· ولكننى أحسست بالندم ، للحظة اليأس المرة التى كادت تقضى على ، ولم أحس برغبتى في الحياة كما أحسستها وأنا على هذا السرير ··

***

ولم ينقطع اسماعيل عن زيارتى ، حتى اليوم ، وقد كان هنا هـــذا الصباح ، فقال لى : ان له قريبا ، يدير محلا لبيع العطور فى حاجة الى بائعة ، وقد رشحنى له · ونصحنى أن أقبل هذا العمل حتى لا أظل فى حاجة الى « المشلولة » فقبلت ·

ولم أكن أتصور أن يكون اسماعيل فى هذه الطيبة ، ولا أدرى كيف كنت أكرهه فى تلك الايام البعيدة ·· ولعلك ترى هذه الباقة الجميلة من الورد ·· فهى باقته ·· وقد أتى بها هذا الصباح وقدمها الى وقال :

ـ يقولون انك ستخرجين غدا يا روز ·· وهذه الباقة هديتى بهذه المناسبة ·· صحيح أنها قد تبدو غريبة فى هـــذا العنبر ·· ولكنك لن تكونى فى حاجة اليها فى مكان آخر ·· فأنت نفسك باقة من الورد ·· أليس اسمك « روز » ··؟



القسم الرابع

ولإسماعيل حكاية



ما حاجـــتك الى ان تنبش الماضى ٠٠ ؟ ولم لا توجه قدراتك واهتمامك الى المستقبل ٠٠؟ فانى لا أرى فيما تنبش فيه من ركام الاحداث غير الأسى والمثبطات ، ودواعى الخجل ٠٠ فأنا خجل من ذلك الشق من الماضى الذى توجه اهتمامك اليه ٠٠ وانى لأحاول أن أزج بأحداث العوامة كلها الى أبعد ما يكون الماضى لأنساها ٠٠ فهى لا تخطر لى الا « كأكلة مسممة » أرغمت عليها ، فلم تقتلنى ، ولكنها تركت فى أحشائى ذكرى مسممة لا تنفك تسبب لى الغثيان ٠

وأنا لم أكن أكره العوامة ، ولم أكن أحبها ؛ وانما كنت أعيش فيها٠ ولو وجدت فى مكان أسوأ لعشت فيه أيضا تلك السنوات ، فقد كان لابد لى من أن أعيش فى مكان ما ، حتى أحصل على تلك الورقةالمتموغةالمختومة لتشهد لى انى أصلح لوظيفة « فنان » ٠

حقا انه لمن دواعى الأسف أن أنظر الى الفن على أنه «وظيفة» ولكن ما حيلتى وورائى أسرة بأكملها أرهقت نفسها فىانتظار اليوم الذىأحصل فيه على وظيفة ، لا لتفرح بى ، بل لأعينها على حياتها ٠ وما حيلتى اذا لم يكن أمامى طريق آخر لأعينها ٠

والعوامة لم تكن بالمكان السىء على الاطلاق ، فلا يوجد مكان علىالارض ينضح السوء من ذاته ، بل لا بد من ناس يجلبونه اليه ، ولقد جلبنا نحن السوء بأنفسنا الى العوامة اذ قبلنا اقامة «جميل» معنا منذ بادىء الأمر ، ثم تولى هو ما تلى ذلك من أخطاء كنا ــ نحن والعوامة ــ شركاء فيهابصورة أو بأخرى ٠

ولقد قص عليك مصطفى ما يكفى لعلمك من أحداث العوامة ، وكل ما رواه صحيح ، وان كنت لا أقره على ما هوطابعه من مغالاة فى تقييم تلك الاحداث ، ولكنى لا أعتقد أنه غير فيها من حيث هى واقع ٠

كنت أقول له :

« ان ما تراه « روز » سببا لسعادتها يصبح سببا لتعاستك أنت٠٠ وهذا كثير ٠٠ فيكفى أن تشمئز منها ٠٠ »

فكان يجيبنى :

« ان طفلة مثلها لا تقدر ما تفعل ، وأنا أقدره ، ولا يكفى أن نشمئز من تصرف طفلة ، بل من الخطأ أن تكتفى بالاشمئزاز ٠٠ »

وعندما تخلى جميل عن « روز » وماتت ابنتها ــ وكان لابد أن تموت اشتركنا جميعا ، أنا ومصطفى ورفاعى فيَ الحزن من أجلها هى ، لا من أجل ابنتها ، فكانت فرصتنا نحن الثلاثة لنجتمع على رأى ٠

أما جميل ، فانى لا أدرى ماذا كان احساسه الحقيقى عنــدئذ ، واعتقادى أنه كان يتلوى فى داخله بالرغم من كل ما كان يظهره من عــدم مبالاة ، وبالرغم مما كان يعمد اليه من فظاظة ٠

***

وموقف مصطفى من « سهير » لم يكن يختلف عن موقفه من روز ، الا فى أمر واحد ، وهو أن ما كان يحطمه ليس الالم من أجلها ، بل الخوف عليها ٠ فكنت أقول له :

« ان سهير ليست طفلة هى الاخرى ٠٠ فدعها تعيش حياتها ٠٠ »
فكان يقول :

« ليس من الانسانية أن نترك الشر يحيق بانسان ٠٠ ونظل مكتوفى الأيدى ٠٠ »

ولكن نظرته الى سهير كانت دائما فوق الشك والريبة ، وكان دائما يؤكد لنفسه ولى أنه ليس من السهل جرها الى الزلل ، ومع ذلك لم يكن يتخلى عن احساسه بالخوف عليها ٠

ثم كانت حادثة « المنديل » التي قلبت أفكار مصطفى رأسا على عقب ، وانتهت به الى أن حطم مشروعه الذى بذل فيه جهدا كبيرا يفيض بالاحساس كان كفيلا بأن يحقق له نجاحا طيبا لو قدمه للتحكيم ٠

***

وسافر مصطفى كما سافر رفاعى ، ولم أكن لأترك العوامة قبل أن أتم مشروعى وأقدمه ، ومن ثم بقيت مع جميل ، يتجاهل كل منا الآخر ، ونتحاشى كل ما يمكن أن يجمعنا فى مكان أو حديث ٠

وأيام هــذا شأنهــا لا يمــكن أن تمضى بغير منغصات ، وقــد بدأت المنغصات فى اليوم التالى لسفر مصطفى ورفاعى ، اذ كان جميل قد تسلم فى ذلك اليوم رسالة من أبيه لم أكن أدرى بطبيعة الحال ما جاء بها ، ولكنى فوجئت به يقتحم العوامة ثائرا يكاد يتفجر غيظا ، فلم أفهم منه سوى أن

خطابا وصل أباه وأنه يريد أن يعرف صاحبه ، فلم أقابل ثورته بمثلها اكتفاء بما أدى اليه خطاب روز من نتائج أمكنني تصورها .

***

وسافرت الى بلدنا حيث أمضيت ثلاثة أيام مع أسرتى ، ثم عدت فوجدته سجين العوامة يعانى حالة نفسية سيئة للغاية ، فاستقبلنى فى عجرفة لم تخف حقيقة ما كان يعانيه ، ولكنى أهملته كما تعودت أن أفعل، ولم أكترث له. وكنت مستلقيا فى سريرى فى مساء ذلك اليوم عندما رأيته يدنو منى بلا تردد ، ثم يقف أمامى منتصبا فيقول فى كبرياء :

ـ أنت مدين لى بخمسين قرشا ..

ـ من .. أنا ..؟

ـ نعم.. أنت .. لعلك نسيتها.. كنت قد دفعتها بدلا عنك «للبنت فتحية » عندما كانت هنا فى آخر مرة .

واختلط على الامر فلم أعرف على وجه اليقين : هل كان قد استرد هذا المبلغ من قبل أولا ؟

فقلت له :

ـ المهم .. ماذا تريد الآن ؟.

ـ أريد الخمسين قرشا ..

ولم يعد لدى شك فى أن أباه امتنع عن ارسال راتبه الشهرى اليه . فنهضت وأخرجت من جيب سترتى جنيها فمددته اليه وطلبت باقيه ، وأمسك بالجنيه يتفحصه فى استغراق ، ثم ألقى الى نظرة مختلجة تعبر عن أمور كثيرة غامضة لم أفهم منها سوى أنه يعانى محنة ، وأنه يود لو تخلى لحظة عن كبريائه . ومرت لحظات ثقيلة قبل أن يفتح فمه فيقول فى صوت خافت :

اننى فى حاجة الى هذا الجنيه .. هل لديك مانع ..؟

ولم أدر بماذا أجيب ذلك أنى كنت فى حاجة الى كل قرش فى جيبى كما أننى لم أفكر فى يوم من الايام أن أؤدى له خدمة من أى نوع ، ولكن كآبته ، وخفوت صوته ، وارتجاف شفتيه وهو يكلمنى ، جعلنى أحس بشىء ما نحوه لا أدرى أهو اشفاق ، أم تشف ، أم هو مزيج منهما ان كان يمكن للاشفاق أن يمتزج بالتشفى .

ولما طال سكوتى ، لم يستطع هو صبرا ، فقال فى اغتمام :

ـ أنا لا أعرف من أوشى بى عند أبى ٠٠ ان لم تكن أنت ٠٠ فلا بد أنه مصطفى ٠

قلت فى هدوء :

ـ ان مصطفى لا يفعلها ٠٠ ولم يفعلها ٠

ـ ورفاقى لا يقدم على عمل كهذا ٠٠ فلا يبقى غير هـذه المجنونة ٠٠ لقد فكرت فى أن أذهب اليها لأسألها بنفسى ٠٠ ولكنى أمقتها لدرجة أنى لا أريد أن أراها ٠

فزال الاحساس الطيب الذى تسلل الى خلسـة ، وراق لى أن أعرف ما أدى اليه خطاب « روز » الى أبيه من آثار ٠

فسألته :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟

فتهاوى على سريرى ، والجنيه لا يزال بين أصابعه ، ثم قال :

ـ لقد أرسل الى أبى يقول انه علم بعلاقتى بروز ، وابنتى منها، وفى امكانك أن تتصور ما تضمنه خطاب كهذا من عبارات ٠

ـ وبعد ٠٠

فتنهد ثم تابع حديثه :

ـ قال انه متبـرىء منى ، وانه لا يريـد أن يرانى ٠٠ ولـو رآنى فسيقتلنى ٠

يقتلك ٠٠؟

ـ انه يفعلها ٠٠ لا أشك فى أنه يفعلهـا ٠٠ ان تدينه ليس الا قناعا يخفى به اجرامه ٠

وكان يتكلم فى لهجة بائسة لم أسمعه يتكلم بها أبدا ٠٠ فقلت :

ـ انه تهديد ٠٠ ليس الا ٠

ـ وهل يهمنى هـذا التهـديد ؟ اننى لا أخافه ٠٠ واذا كان قد تبرأ منى كما يقول فان هذا هو منتهى أملى ٠٠ ولكن ماذا أصنع الآن ٠٠ وليس معى نقود ؟

وارتجفت يده وهى تعبث بلحيته فى قلق ، ثم تمتم :

ـ لقد أرسلت الى أخى الطبيب أطلب العون منه ٠٠ وأشـك فى أنه

سيهتم ٠٠ اذ لا أعتقد أن مرتبه يكفى ٠٠ وتمنيت لحظة لو كان مصطفى موجودا يشهد هذا الموقف ، ولكن لم أذهب بضغينتي بعيدا ، فان الانهيار المفاجىء لهذا الانسان كان قد أثار اشفاقي بالفعل برغم كل الصور التعسة التي خطرت بذهني لتصرفاته الماضية كلها ٠

سألته :

ـ وماذا ستفعل ٠٠ في المشروع ٠٠؟

ـ أي مشروع ٠٠؟

ـ ألن تقدم مشروعا ٠٠؟

ـ ومن يهتم ٠٠ ان ما أريده الآن هو حل لهذه المشكلة ٠

***

بعد هذا الموقف تغير جميل مرة أخرى ، أقصد أنه عاد الى حالته الاولى يعاملني في حقد ظاهر ، ويتحاشى الحديث الى ٠٠ وكنت قد بدأت أروض نفسي لأنتزع منها كراهيتي له ، بل كنت أفكر جديا ـ صباح ذات يوم ـ في أن أعقد معه صلحا نهائيا ، عندما طرق بابنا ، ولم يكن هناك غيري ففتحت الباب لأجد عم جابر بواب العمارة التي تسكنها روز ، وكان ظاهر الارتباك ، يلهث ٠

سألته في لهفة :

ـ خيرا يا عم جابر ؟

فقال الرجل في اضطراب :

ـ الحق يا أستاذ ٠٠ البنت المسكينة رمت نفسها ٠

فصحت :

ـ كيف رمت نفسها ٠٠ ؟

ـ امبارح بالليل ٠٠ ما بصيت الا لقيت الناس اللي بتجري ٠٠ وتصرخ ٠٠ فجريت ٠٠ لقيت المسكينة غرقانة في دمها ٠٠ رمت نفسها من تاني دور ٠

ـ وماتت ٠٠؟

ـ من فضل ربنا وقعت على شجرة ٠٠ خففت الوقعة ٠٠ نقلوها للمستشفى ٠

ـ طيب ٠٠ انتظرني ٠٠ سأذهب معك ٠٠

وزرت روز فى المستشفى فكانت فاقدة الوعى ، فلم تدر بى ، ولكننى لم أستطع أن أمسك دموعى ، فحولت نظرى عنها ، وانصرفت وأنا أصر على أسنانى • ووددت فى تلك الساعة لو أمسكت بجميل فألقيت به فى النيل •• لو أنى استطعت أن أنتقم منه لهذه البائسة بأية صورة ، وعادت كراهيتى له تطبق على قلبى فلا تدع مكانا لأى احساس آخر •

***

ولم يعد جميل الى العوامة الا فى ساعة متأخرة من الليل ، وكنت أترقب عودته ، فذهبت اليه فى حجرته ووقفت أرقبه وهو ينضو عنه ثيابه ثم قلت :

ـ هل تعرف نهاية روز ••؟

فجذبت عبارتى وجهه الى ، ولكنه استعاده فى غير اكتراث ، فأضفت :

ـ لقد انتحرت ••

فشلت حركته ، وظل مطرقا وقتا لا أدرى مداه ، ثم راح يكمل خلع ثيابه دون أن ينطق •

قلت :

ـ ألا تحس بالالم من أجلها •• ألا تحس بالخجل •• مجرد الخجل من نفسك ؟

فلم يبد اهتماما بما كنت أقول ، فصرخت فيه :

ـ أنت حيوان ••

فأطفأ نور الحجرة وألقى بنفسه على السرير ، فلم يكن أمامى الا أن أنسحب وأنا أتميز غيظا ••

***

فى اليوم التالى زرت « روز » فلم تكن فى حال أحسن مما كانت عليه فى اليوم السابق • وبعد أيام استطاعت أن تميز شكلى ، ولكنها لم تحرك شفتيها ، ولم تكلمنى الا بعد مضى أسبوع على الحادث ، فقالت فى صوت هامس :

ـ هل كنت تزورنى •• فى الايام السابقة •• قالوا لى ان شخصا كان يزورنى •• أهو أنت ••؟

ـ نعم ٠٠ أنا يا روز ٠

وسكتت لحظات ، ثم قالت :

ـ كنت أظنه جميل ٠٠

ولم تتكلم كثيرا فى هذه المرة ، ولكنها فى المرة التالية سألتنى عن مصطفى ورفاعى ، ولم تذكر جميل ٠٠ بل لم تذكره فى أى يوم آخر ٠ وكانت حالتها تتحسن يوما بعد يوم ، حتى تماثلت للشفاء ، فكنت أمضى الى جانبها ساعة كل يوم أنصت اليها وهى تتكلم فى صفاء خيل الى أنه صفاء الملائكة كما كان يحلو لمصطفى أن يقول عنها دائما ٠

وذهبت الى قريب لى يدير محلا لبيع العطور بشارع قصر النيل ، فطلبت منه فى الحاح أن يقبل روز للعمل بالمحل ، فقبل برغم أنه لم يكن فى حاجة اليها ، وقد أدخل هذا الخبر سعادة كبيرة على قلب «روز» وراحت تحدثنى وهى فى سريرها عن مشاريعها التى تعدها للايام المقبلة ، وكلها مشاريع ساذجة كنت أبتسم وأنا أستمع اليها ٠

***

كان « جميل » يثير فى ذهنى أسئلة متعددة بالغموض الذى صار يحوط دخوله العوامة وخروجه منها ، والساعات الكثيرة التى كان يتغيبها عنها ، والليالى التى كان يقضيها خارجها ، وكنت أتساءل عما انتهى اليه فى مشكلته المادية التى أعرف لذعتها لما قاسيته منها ٠٠ هل أرسل اليه أخوه الطبيب مايكفيه ، أو هل وجد مصدرا آخر ٠٠؟ وما هو ٠٠ ؟ لم أكن أكلمه لأسأله ، ولم يكن يكلمنى ليقترض منى ، ولكنى فى النهاية صرفت نفسى عن محاولة الكشف عن السر الكامن وراء ذلك الغموض ولم أعد أهتم بالبحث عن اجابات لأسئلتى ٠

وبرغم ذلك فقد جاءتنى الاجابة على كل ما طاف برأسى من أسئلة ، وحدها دون جهد منى ، وقد جاءتنى فى صورة شك فى أول الامر ٠ ففى أوائل شهر أغسطس طلبت منى « الست لواحظ » ايجار العوامة منقوصا جنيهين تصيب جميل فيه ٠ معللة ذلك بقولها « أصله غلبان ٠٠ هايعمل ايه ٠٠ » ٠ وفى احدى ليالى شهر أغسطس عدت الى العوامة فى وقت متأخر فسمعت ضحكات الست لواحظ ترن وراء بابها ثم سمعت صوت جميل هناك ٠

وفى أحد الايام الاخيرة من ذلك الشهر صعدت الست لواحظ الينا وسألت عنه ، وكان فى حجرته فذهبت اليه ، ثم سمعت نقاشا حادا بينهما ، وكان مما التقطته أذنى من حديثها اليه ٠

كل شيء انتهى الآن ياجميل ، لا تحـــاول أن تدخل عندى أبدا ، لقد جاء ابنى اليوم فى اجازته ، وقد كنت مخطئة ، اننى أم ياجميل ، أم لرجل ملء هدومه ، ماكان يضح أبدا ، اننى أحذرك ٠

وكان آخر ما قاله جميل :

ـ اذهبى فى داهية انت وابنك ٠٠ هل تظنين نفسك امرأة ٠٠ انت زبالة ٠٠ أنت مرض ٠٠ لقد كنت اتقيأ كلما تركتك ٠٠

***

وازدادت حال جميل سوءا يوما بعد يوم ، وكانت عيناه قد فقدتا بريقهمـــــا ٠٠ وجف عوده ، وذبل وجهه ٠٠ وصار لا يعتنى أقل عناية بمظهره ٠٠ وأتانى صباح أحد أيام سبتمبر فطلب منى ـ فى انكسار ـ أن أقرضه جنيها ، فأقرضته خمسين قرشا ٠ وجلس على الكنبة القش ، فدفن وجهه بين راحتيه ، وراح فى تأمل طويل ، على حين كنت أعمل فى اللوحة الاخيرة من مشروعى ٠٠ وبعد فترة طويلة من الصمت بدأ حديثه بأن سألنى :

ـ متى ستقدم هذا المشروع ؟

ـ غدا ٠٠

ـ غدا ٠٠ ؟

وخيم الصمت من جديد ، ثم عاد فسألنى :

ـ لماذا عدل مصطفى عن مشروعه ٠٠ ؟

ـ ألا تعلم ٠٠ ؟

ـ لا ٠٠ لا أعلم ٠٠

وفكرت لحظة ، ثم عدلت عن عبارة طويلة كنت أنوى أن أقولهـــا واكتفيت بأن قلت :

ـ لقد فكر فى مشروع جديد ٠٠

ـ أحسن ٠٠ ففكرة مشروعه لم تكن صالحة بالمرة ٠٠

ـ هل ستترك العوامة فى آخر هذا الشهر ٠٠ ؟

ـ لقد ارسلت الى مصطفى ورفاعى أطلب رأيهما ٠٠

فسكت برهة ثم قال فى صوت مشتت وهو يعصر يديه فى توتر :

ــ لا أدرى ماذا أصنع اذا تركتم العوامة ٠٠ بل لا أدرى ماذا أصنع وأنا فى العـــوامة ٠٠ اننى أحس كأننى أمشى فى فراغ ، وأن الارض سحبت من تحت قدمى ٠٠ أحس كأننى فقدت نفسى ٠٠ أو شيئا هاما من نفسى لا أدرى ما هو ٠٠ وراحت يده المرتجفة تعبث بلحيته فى اضطراب ، ثم نهض فجأة ، وراح يدور فى الاتيليه فى عصبية ثم توقف فجأة وصاح :

ــ هل رأيت عمرك أبا مثل أبى ٠٠ انه ليس انسانا بالمرة ٠٠ لقد فكرت مرات فى أن أذهب اليه فأقتله ٠٠ ان هذا هو الدرس الوحيد الذى قد يفهمه ٠٠ حرام أن يعيش مخلوق كهذا ٠٠

وسكت فجأة ، ثم عاد يقول بعد قليل وقد استرد شيئا من هدوئه:

ــ أرسل لى أخى خمسة جنيهات فى أول هذا الشـــهر ، وقال انه يجب على أن أتدبر أمرى ٠٠ فان مرتبه لا يكفيه ٠٠ هل رأيت فى حياتك أخا كهذا ٠٠ لقد كان أخوك يرسل اليك كل شـــهر أربعة جنيهات ٠٠ ولم يقل لك أبدا ان مرتبه لا يكفيه ٠٠ ولعله لا يكفيه بالفعل ٠٠ ولكنه لم يمتنع عن ارسال الاربعة جنيهات اليـــك ٠٠ أما أخى ٠٠ فهو ليس أخا ٠٠ انه تافه ٠٠ كلهم تافهون ٠٠ وأولهم أبى ٠٠

قلت له :

ــ لم لا تحاول أن ترسم شيئا للخواجة أرتريان ٠٠ ؟

ــ ماذا أرسم ٠٠ وكيف أرسم ٠٠ اننى لم أعد أطيق أن أمسك بالفرشاة ٠٠ لم أعد أطيق شيئا بالمرة ٠٠ الحياة كلها عبث ٠٠ الرسم عبث ٠٠ بل هو كل العبث ٠٠

* * *

فى اليوم التـــالى قدمت مشروعى الى الكلية فنصبته بين عشرات المشاريع ، وهالنى أن فقد أهميته خلالها ٠٠ لم يكن هناك مشروع متميز عن غيره بينها ، فلقد ابتلع مجموعها آحادها ، وصار المعرض كله كأنما يعرض مشروعا واحدا جبارا ٠٠ كان ينقصه مشروع مصطفى ، ورفاعى وجميل ، ومشاريع أخرى كثيرة تخلف أصحابهـــا ٠٠ ولكنه برغم ذلك لم يبد أنه ينقصه شىء من هذه المشاريع ٠٠ بل ظل على ضخامته وروعته ٠٠ وكأن أحدا لم يتخلف ٠٠

ووقفت على بعد أرقب عشرات اللوحات الكبيرة والصغيرة ، يحتضن بعضها بعضا ، ويغطى بعضها أجزاء من بعض ، ويبرز بعضها على بعض ٠٠ فلاحت لى فى النهاية كأنها لوحة واحدة هائلة ، تعبر بألوانهـــا المختلطة

العديدة ·· وظلالها ·· وأخشابها ·· أروع تعبير عن كفاح ماكان يسميه جميل « بأسراب النمل » ·

***

وتسلمت قبل اعلان نتيجة التحكم بيومين خطابا من مصطفى يقترح ترك العوامة فى نهاية الشـــهر ، ثم جاءنى خطاب من رفاعى يبدى نفس الاقتراح ، فأطلعت جميل على الخطابين معا ، فحاول في بادىء الامر أن يخفى اضـــــطرابه وقلقه ، ولكنه لم يلبث أن فقد زمام نفسه فى لحظة ضعف ، وراح يهذى بكلام طويل لا رابطة فيه ، تحدث خلاله عن « الست لواحظ » وروز ·· وكان معظمه يدور حول أبيه ·· وامرأة أبيـــــه ·· وأمه · وعنـــدما ذكر أمه ، تملكته ثورة هائلة ، فضرب الترابيزه القش بقدمه ، وصرخ قائلا :

ـ لقد قتلها ·· أنا أعلم أنه قتلها ·· رأيته وهو يضربها حتى تفجر الدم من فمها ·· كان يضربها دائمـــا وكانت تبكى ·· ولكنها فى هذه المرة لم تبك ·· فلقد تفجر الدم من فمها ·· وضربنى لاننى كنت أصرخ ثم جرها الى حجرتها ·· وراح يضربها من جـــديد ·· وفى الصبــــاح وجدناها ميتة ·· وصلى عليها مع الناس ·· هو الذى قتلهـا ·· كنت أعرف هذا دائما ·· ولكننى لم أقله أبدا ·· سأذهب اليه لأقول له كل ماأعرفه ·· وسأقتله ·

***

وكان جميل يرتعد وهو يتكلم بل كان قد فقد صوابه كلية وسكت برهة كان يلهث خلالها ثم تابع صراخه وهو يشد شعره فى عصبية ·

ـ ثم يقول لى انه تبرأ منى وانى لم أعد ابنه ·· ومتى كنت ابنه ·· لقد تبرأت منه منذ يوم أن قتلها ·· وهل أنا فى حاجة اليه ·· اننى لم أعد فى حاجة اليه ·· سأثبت له أننى لست فى حاجة اليه ·· سأستأجر حجرة على أحد السطوح ·· وسأرسم للخواجة ارتريان عشرات الصور ·· وسأبحث عن عمل وسأتزوج ·· سأتزوج روز ·· وعندئذ أثبت له أننى لم أكن فى حاجة اليه ·· وتوقف عن صراخه فجأة ، وتطلع الى بعينين تظللهما الدموع ·· وسألنى فى ذهول :

ـ هل ماتت روز ؟

ولم أجبه على الفور ، انما تريثت قليلا حتى نظمت أفكارى التى كان قد أثارها ، ثم قلت :

ـ ان روز التى تعرفها ماتت ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أنها تغيرت ·· وأنصحك الا تفكر فيها ·· ودعها تشق طريقها ·

وجلس على الكنبة القش ، ودفن وجهه بين راحتيه وراح فى غيبوبة حتى اذا ماأفاق كانت لحيته مبللة بدموعه ، وقال فى هدوء كئيب :

ـ في الايام الاخيرة فكرت طويلا في روز ·· رأيت أنى كنت مخطئا ولكنى أؤكد لك أننى لم أتخل عنها الا خوفا من أبى ·· لاأدرى لماذا كنت اخافه برغم كل ماكنت أحاوله من تحقيره·· أما وقد تبرأ منى كمايقول·· فاننى لم أعد أخافه ·· صدقنى يااسماعيل ·· اننى أحب روز ·· انت لاتصدقنى ·

ـ انس هذا الموضوع ياجميل ·· فان ماتحسه الآن ليس حبا لروز انما هو حاجتك الى حبها ·

ـ ان أحدا لن يصدق أنى أحبها ·

ـ قلت لك انس هذا الموضوع ·· فلقد أصبح لروز أيضا أفكارها·

***

ورسم جميل لوحتين باعهما للخواجة أرتريان قبل نهـاية شهر سبتمبر ، كما ظهرت نتيجة التحكيم ، وحصل مشروعى على تقدير طيب· وفي نهاية ذلك الشهر جاء رفاعي ومصطفى لينقلا أمتعتهما من العوامة·· وكان جميل قد حمل أمتعته ورحل قبل وصولهما وترك لى ورقة قال لى فيها : انه استأجر حجرة رخيصة على أحد السطوح قرر أن يبدأ فيها ·

ولم تخرج الست لواحظ لوداعنا ، ومررنا قبل سفرنا «بمحـل العطور» الذى تعمل فيه روز ·· فاستقبلتنا نحن الثلاثة بفرحة هـائلة كادت تتسبب في تحطيم زجاجة عطر غاليـة ·· وكانت تبتسم طوال الدقائق التى أمضيناها معها ·

وسألها مصطفى :

ـ أين صورة العذراء ·· انك لاتحملينها ؟

فقالت باسمة :

ـ انني أحفظ كلامك هنا ·

وأشارت الى قلبها ، وسكتت قليلا ثم قالت :

ـ هل نجحتم جميعا · ؟

فقالى مصطفى :

لقد نجح اسماعيل .. أما أنا ورفاعى فلم نقدم مشروعينا .

ــ ياخسارة .. وصورتى .. ألم تقدمها ؟

ــ لا .. ولقد مزقت كل لوحاتى .. ماعداها .. سأهديها اليك .. هل تمانعين ؟

ــ أليست صورة لواحدة من «المعذبات» ؟

فضحك مصطفى وقال :

ــ انها صورة «حائرة» .

وفكرت روز ثم قالت :

ــ ستسر بها «المشلولة» كثيرا .. وستكون أول ماأضيفه الى البيت من تحف .

ودخلت امرأتان أنيقتان ، فاستأذنتنا «روز» وذهبت اليهما ، وقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة واسعة .

ــ أى خدمة .. يامدام . ؟

فهرس


الدار القومية للطباعة والنشر
فرع الساحل

الدار القومية للطباعة والنشر

